

الفصل الثاني

الزعامات السياسية المصرية

« نماذج من التاريخ السياسي للمجتمع المصرى »

تجهيز :-

المبحث الأول :

- الزعامات السياسية فى مصر : البشائر وارهاسات الانبثاق .

المبحث الثانى :

- أحمد عرابى : كنموذج للصفوة العسكرية الوطنية .

المبحث الثالث :

- مصطفى كامل : بين العشق الرومانسى لمصر ومقومات الصفوة السياسية المثقفة .

المبحث الرابع :

- سعد زغلول : موهبة جسدتها ظروف المجتمع .

المبحث الخامس :

- الزعامات السياسية المصرية : مظاهر التماثل ومؤشرات التمايز .

obeikandi.com

تمهيد

قد يواجه الراصد لحركة الزعامة السياسية في مصر ، والمؤرخ لها عددا من العقبات ، وقد تتضاعف هذه العقبات كما وتتعاقد كيفما اذا ما كان المعنى بالرصد ليس مؤرخا تقليديا ممن ينتمون الى زمرة المؤرخين المتخصصين في علم التاريخ ، ولكنه ممن يتخذون من التاريخ منهجا ومن المعطيات التاريخية أساسا للتحليل وقاعدة للفهم وهو ما يميز المتخصصين في علم الاجتماع السياسى ، ويمكن تحديد طبيعة هذه العقبات فيما يلى :

١ - البعد الزمنى الذى نبحث من خلاله عن الزعامات السياسية المصرية بمعنى من أين نبدأ ؟ وما هى نقطة البدء بالنسبة لدراستنا ؟ لا سيما وأن تاريخنا المصرى يتميز بامتداد رقعة الزمنية ، الأمر الذى يخلق بالنسبة لنا (مشكلة انتقاء) لنقطة البدء ، وحتى وان تم هذا الانتقاء ، فما هى مبرراته ؟ .

٢ - وتتمثل العقبة الثانية في تحديد معنى الزعامات السياسية وتعيين ماهيتها ، بمعنى أن تاريخنا المصرى بوقائعه واحداثه وشخصياته المتعددة ذات الصلة بهذه الوقائع والاحداث لا يمكن أن تدخل كلها في زمرة الزعماء السياسيين بسماتهم وخصائصهم التى تميزهم عن غيرهم كقادة الرأى والفكر مثلا ؟ .

٣ - وتتمثل العقبة الثالثة في تلك التناقضات التى يمكن الكشف عنها من خلال المعالجات المختلفة للزعامات السياسية المصرية من قبل الباحثين والمؤرخين ، وهى التناقضات التى تشير الى الأبعاد الذاتية والايديولوجية لكل باحث ومؤرخ ، الأمر الذى يثار معه تساؤل أساسى هو : أين الحقيقة إذن ؟ .

٤ - وتشير العقبة الرابعة الى طبيعة (رؤية) التناول و (منهج) المعالجة ، لا سيما ونحن لسنا مؤرخين بالمعنى التقليدى ، بل نحن باحثون في علم الاجتماع السياسى نتناول الظواهر السياسية فى علاقتها بالسياق

الاجتماعى وبالتغيرات الثقافية والاقتصادية ، فضلا عن الظروف السياسية التى نشأت فى ظلها هذه الظواهر ونمت ؟ فكيف اذن نتميز عن المؤرخ بصورته الكلاسيكية ؟ .

ولتجاوز العقبات الأربع السابقة يمكننا تحديد مجموعة من (الالتزامات) النظرية والمنهجية والتاريخية التى تصيغ الاطار العام للفصل الثانى من هذا المؤلف ، وهذه الالتزامات هى :

١ - يتحدد الاطار الزمنى العام لهذا الفصل من خلال العصرين الحديث والمعاصر للمجتمع المصرى على اعتبار أن هذين العصرين من أكثر عصور هذا المجتمع تشبعا بالزعماء السياسيين بالتصور الذى يطرحه هذا المؤلف وهى الفترة التى بدأت منذ تولية محمد على عرش مصر عام ١٨٠٥ حتى اللحظة الراهنة .

٢ - ان هذا العرض لن يتجاهل فترة ما قبل العصر الحديث ، بل سوف نعنى - بوجه عام - بملامح الزعامة السياسية المصرية وارهاساتها قبل هذا العصر وحتى نصل الى بشائر نضجها بدءا بالحملة الفرنسية وتولى محمد على .

٣ - ثم يمتد البعد الزمنى فيميز بين حقبتين ، حقبة ما قبل دستور عام ١٩٢٣ وهى التى تجلت فيها زعامات أحمد عرابى ومصطفى كامل ، وحقبة ما بعد عام ١٩٢٣ ، والتى بدأت حقيقة بثورة ١٩١٩ والتى تالقت فيها زعامة سعد زغلول ومن جاء بعده كمصطفى النحاس وان كان الأخير لن يدخل فى دائرة تحليلنا .

٤ - يكشف هذا الفصل عن تصور خاص للزعامة السياسية والذى يتحدد فى (هؤلاء الأفراد أصحاب النزعات القيادية واللكات أو المواهب الزعامية الذين قادوا الجماهير فى لحظات أزمنتها سواء ضد المستعمر الاجنبى أو ضد الحاكم ذى النزعة التسلطية ، وهم فى ذلك يختلفون عن قادة الفكر والرأى من جهة وعن الحكام التقليديين من جهة أخرى ، وان كان هذا لا يمنع من أن نكون هناك (حالات) جمعت فيها (بعض) هذه الزعامات بين الزعامة السياسية الجماهيرية وتولى مقاليد السلطة الرسمية . مع ملاحظة ان الزعامة السياسية بصورتها المتكاملة ، هى تلك الزعامة صاحبة الرؤية

أو الايديولوجية الخاصة ، والتي بدونها تفتقد الزعامة أهم عناصر التكامل فيها) .

٥ - تتحدد الرؤية النظرية الاختبارية لهذا الفصل في محاولة الإجابة عن مجموعة التساؤلات التي استقيناهما من التراث النظري الخاص بظاهرة الزعامة السياسية وارتباطها بعدد من المفهومات والقضايا ، كمفاهيم القوة وصيغة الحكم والثورة والصنفة ٠٠ الخ .

٦ - يسعى هذا الفصل الى تحديد الملامح الايديولوجية العامة للنماذج الثلاث للزعامة (أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول) وكيف انعكست هذه الملامح على نمط الزعامة وأسلوب القيادة الذي انتهجه كل زعيم ؟

٧ - ثم كيف كانت هذه الزعامات (كظواهر سياسية) انعكاسا للظروف الموضوعية للمجتمع المصرى في حقبة التاريخية المختلفة ؟

٨ - يحاول هذا الفصل أن يكشف عن مظاهر التماثل بين الزعامات السياسية المصرية ومؤشرات الاختلاف أو التمايز .

٩ - يعتمد هذا الفصل في تحليل الزعامات السياسية المصرية على أسلوبى العزو أورد الشئ الى أصوله nputation واقتفاء الأثر Trace وهما الأسلوبان المستقيان من مناهج البحث في علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge

obeikandi.com

المبحث الأول

الزعامات السياسية المصرية : البشائر وارهاسات الانبثاق

1999

1999

ارتبطت [الزعامة] في مصر - عبر تاريخها الطويل - بالمواقف والأزمات والتي كشفت في بعض مظاهرها عن مضمون اقتصادي وإن ظهرت الأسباب السياسية بين حين وآخر ، ولقد استمرت الزعامة المصرية في ارتباطها (بالموقف) و (الأزمة) حتى العصر الحديث والمعاصر .

ولكن من المؤكد أن مصر لم تشهد الزعامة السياسية بمضمونها الأصلي وبملاحمها المتفق عليها إلا منذ الحملة الفرنسية على مصر ، وإن كانت هذا لا ينفي أن عصور ما قبل هذه الحقبة قد شهدت قيادات - وليست زعابات سياسية - وخاصة قيادات الطوائف الحرفية والطرق الصوفية المنتشرة في احياء القاهرة القديمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر كحى الحسينية وكحى العطف وباب زويلة ، وباب الشعرية .. الخ .

ولقد ارتبطت (الحركات الشعبية) بهذه الأحياء وطوائفها ورؤساء هذه الطوائف ولا سيما طائفة (الجزارين) الذين تزعموا - أو على وجه الدقة - قادوا العديد من الحركات الشعبية ضد ظلم الحكام ، ويكنى أن نذكر في ذلك (الشيخ أحمد سالم الجزار) الذي « ظهر نفوذه الكبير على حى الحسينية أثناء الأزمات التي شارك هذا الشيخ فيها » ويمكن الافتراض كذلك أن الخلوتية (التي ظهر بينها على الیومی) قد لعبت دورا في الحياة الروحية للحى ، فالسيد على بن موسى ، وهو شخصية ذات نفوذ (ومدرس بالمشهد الحسينى) - كان أيضا واحدا من شخصيات الحسينية المرموقين ، وبعد موته أصبح أخوه « بدر الدين » زعميا للحى وهو الذى قاد حركة عام ١٧٨٩ ، (١) .

ويذهب أندريه ريمون مؤكدا ارتباط الزعامة أو القيادة الشعبية برؤساء الطوائف والمهن ويشير - خلاف ما سبق - الى الدور الذى لعبه

(١) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، مؤسسة روزاليوسف ، يوليو ١٩٧٤ ، ص ٢٧٧ .

بصفة خاصة الجزارون الذين يصفهم بأنهم « ٠٠٠٠ قوم متينو البنية ، حادو الطباع ، تربطهم تقاليد طائفية قوية » (١) . ولقد كانت طائفة الجزارين - حسبما يشير أندريه ريمون - هي النواة التي تتجمع حولها حركات التمرد ، ويذكر من زعماء هذه الطائفة الى جانب أحمد سالم الجزار ، شيخ الجزارين ابن شمة زلدى يعتبر أحد الزعماء الشعبيين خلال أحداث ١٨٠٥ انتى لعبت فيها الحسينية دورا حاسما (٢) .

(٢) .

وإذا كانت الزعامات الشعبية قد ارتبطت في القرنين السابع عشر والثامن عشر برؤساء الطوائف وأرباب المهن ، وهي الزعامات التي تكشف قوتها من خلال الأزمات الاقتصادية وظلم الحكام ، فكانت بعض (الهبات) (٣) الشعبية التي تزعمها رؤساء الطوائف الذين كانوا يمثلون نوعية خاصة من الصفوات The Elites للشعبية الذين يستمدون قوتهم من طبيعة الوضعية الرئاسية للطوائف والمهن ، وهو ما يكشف عن الدور العظيم الذى كانت تقوم به هذه الطوائف والمهن ، فضلا عن رؤساء الفرق الدينية الذين اضطلعوا بأدوار سياسية في وقت المحن والأزمات التي كان يتعرض لها الشعب .

ويخبرنا أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى ما يكشف عن دور الصفوات المتميزة في القرنين السادس عشر والسابع عشر في الوقوف بجانب الشعب لدرء الظلم ومقاومة الحكام وظلم السلطات الحاكمة ، فينبئنا عن الحاج ناصف الذى يلجأ اليه أهل البتانون (احدى قرى مركز شبين الكوم - المنوفية) عند ما يشتد بهم الكرب ، والذى يصفه أحمد شلبى بن عبد الغنى بأنه كان « ٠٠٠ مرهم البلد ٠٠ كريم اللحية ، طعام عيش لا يحب فسادا ،

(١) أندريه ريمون ، نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٢) انظر : أندريه ريمون ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ .

(٣) من المؤكد أن هذه الهبات لم تكن الاولى من نوعها في تاريخ المجتمع المصرى . بل ان تاريخ مصر الفرعونية ينبئنا بان اول ثورة على الاقطاع قد حدثت في مصر قرابة انتهاء الاسرة السادسة (بين عامى ٢٢٨٠ ق.م - ٢٢٣٤ ق.م) [انظر محمد العزب موسى ، اول ثورة على الاقطاع] . وانظر سيد حامد النساج ، مصر وظاهرة الثورة : دراسة في تاريخ الثورات المصرية ، دار النهضة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

فتلقى جميع أمور البلد بصدره ، وأن مضيفته للشارد والوارد من أهل
الرايتين ، وأنه عين البلد « (١) » .

(٣)

ويبدو أن الظلم كافرارز طبيعى لنمط الحكم الذى ساد مصر أيام حكم
المماليك ومن جاء بعدهم من الاتراك العثمانيين قد ساعد كثيرا على خلق
مواقف الاحتجاج التى كان يتزعمها بعض الأفراد المتميزين فى المجتمع ، ولولا
هذه المواقف - فيما يبدو - ما كان لهذه الشخصيات أن تظهر كقائدات
جماهيرية ، وإن ظلت كشخصيات متميزة فى المجتمع .

وتأكيدا لسمة الظلم التى سادت مصر المملوكية والعثمانية تلك
الأحداث التى ذكرها ابن اياس عن أحد أيام شهر ذى القعدة عام ثمان وسبعون
وثمانمائة (١٤٧٣ / ١٤٧٤ م) حيث يقول « وفيه ثار جماعة من المماليك
الجلبان ونزلوا الى جهة بولاق فنهبوا ما فيها . ثم قصدوا شونة الأمير يشبك
الدوادار فنهبوا ما فيها ، وصاروا يأخذون جمال السقاين ، ويحملونها
ما نهبوا من الشعير . . . وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الضرر للناس من
نهب وخطب بضائع الناس وغير ذلك . . . » (٢) .

ولاشك أن الاحتجاج أو التمرد أو العصيان ظواهر تترتب بطبيعة
الحال على ما تفرزه مظاهر الظلم والديكتاتورية المرتبطة بنوعيات خاصة
من أساليب الحكم ونظمه ، وهنا تجد الزعامات السياسية أو القيادات
الجماهيرية أرضا خصبة للتخلق والنمو .

وزعامات هذا العصر لا يمكن أن ننظر إليها ، أو ينهض تقويمنا لها
على أساس مقاييس عصرنا الراهن ، ولكنها زعامات على أية حال بظروف
عصرها . وبمنطق الوضعية السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك . ويتأكد
هذا الدور الزعامى لبعض شخصيات القرن الثامن عشر والتاسع عشر فيما رواه

(١) أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر
القاهرة من الوزراء والباشاوات الملقب بالتاريخ العينى ، تقديم وتحقيق وضبط
عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤١٦ .
(٢) محمد بن أحمد بن اياس الحنفى المصرى ، من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،
كتاب للشعب (٩٦) ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٤٩ .

عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصرى الشهير ، عن ذلك الدور المتميز الذى لعبه علماء الازهر ومشايخه (١) ، وهو دور يكشف عن نوعية خاصة من الزعامات وهى الزعامات الدينية التى كانت تمثل صفوة متميزة فى حينها ، كما يكشف أيضا عن الدور العظيم الذى لعبه الازهر بعلمائه ومشايخه الذين اعتبروا العمل فى الحياة العامة صورة من صور الجهاد ، فكان التحامهم بالشعب ودفاعهم عن قضاياهم والوقوف بجانبه أمام صلف السلطات الحاكمة وقيادة حركات تزمه ، وتمثيله أمام الحكام والولاة ، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ العروسى ، والشيخ الأمير ٠٠٠ الخ ، ومما رواه عبد الرحمن الجبرتي ويؤكد الدور القيادى للصفوة الدينية ، أنه فى ذى الحجة عام ١٩٧٥ « وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوى له حصّة فى قرية بشرقية بلبيس ، حضر اليه أهلها ، وشكوا من محمد بك الالفى ، وذكروا أن أتباعه حضروا اليهم وظلموهم ، وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ فاعتصموا ، وحصر الى الازهر ، وجميع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وذلك بعدما خاطب براد بك ، وإبراهيم بك ، فلم يجديا شيئا ٠٠ ففعل ذلك فى ثانى يوم ، وقفلوا الجامع ، وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ٠ ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم ، وذهبوا الى بيت الشيخ السادات ، وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة ، بحيث يراهم إبراهيم بك ، وقد بلغه اجتماعهم ، فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر اليهم ، وسلم عليهم ، ووقف بين يديهم ، وسألهم عن مرادهم فقالوا له : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتوها وأحدثتموها » فقال « لا يمكن الإجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعياش والنفقات » ففعل له « هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات

(١) انظر دراسة هامة عن دور الازهر وعلمائه فى الكفاح فى : عبد العزيز محمد الشناوى ، صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧١ .
كذلك انظر : عبد الرحمن الرفعى ، مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية ، مركز النيل للإعلام ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وشراء الممالك والأمير يكون أميراً بالاعطاء لا بالأخذ » فقال : « حتى أبلغ » . ويستطرد الجبرتي فيقول : « وفي اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل ابراهيم بك واجتمع الافراد هناك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري ، والشيخ الأمير ٠٠ ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة ، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ، ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ، ويبطلوا رفع المظالم المحدثه ، والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ٠٠٠ وكان القاضي حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك ، وفرمن عليها الباشا ، وختم عليها ابراهيم بك ، وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضاً ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ ، وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون : (حسب ما رسم ساداتنا العلماء : بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية) (٦) .

(٤)

وثمة مجموعة من الحقائق يمكن استخلاصها من النص السابق وهي :

(أ) ان علاقة الشعب بالسلطة الحاكمة سواء المملوكية أو العثمانية كانت علاقة يسودها التوتر والظلم .

(ب) لم يستسلم الشعب المصري للظلم وعادة ما كان يعبر عن عدم رضاه هذا بما يشبه التذمر والاحتجاج الذي يأخذ أحياناً شكل العنف .

(ج) كان الجامع الأزهر هو ملتقى العامة من الشعب لتحدير أمورهم لمواجهة ظلم السلطات الحاكمة ، وكان ملاذهم الوحيد لدرء الخطر عنهم مستعينين في ذلك بعلمائهم ومشايخهم الذين لعبوا دوراً جماهيرياً عظيماً في الكفاح الوطني وفي مساندة الحركات الشعبية رغم انتكاسة هذا الموقف بعد حكم محمد علي .

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، المختار من تاريخ الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، كتاب الشعب (٢٩) ، اختيار محمد قنديل البقلى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣٦ .

(د) ان نظرة السلطات الحاكمة الى علماء الأزهر ومشايخه - فى تلك الآونة - كانت تنقسم بالاجلال والاحترام . ولعل هذا ما يؤكد أن الزعامات الدينية فى الحقب المشار إليها لم تكن زعامات دينية خالصة ، بل امتزجت النزعة الدينية بالرؤية السياسية الدنيوية ، فكان لهم هذا الدور القيادى فى تزعم حركات الجماهير ، وفى قيادة الثورات وهو ما تجلّى فى مقاومة الحملة الفرنسية والدفاع عن مدينة القاهرة ، وقيادة ثورتى القاهرة الأولى والثانية .

ولاشك أن نابليون قد أدرك القيمة الحقيقية للصفوة الدينية أو للزعماء الدينيين ومدى قدرتهم على قيادة الجماهير وتحريكهم ، ويتضح ذلك من موقفين : الموقف الأول حين دخل الفرنسيون القاهرة ، فكان أول عمل قاموا به ظناً منهم أنه يحقق لهم استسلام الشعب القاهري ، هو القبض على الزعماء الدينيين ، أما الموقف الثانى فيتضح عندما أدرك نابليون أن مركزه محفوف بالمخاطر ، وصار يتوود الى المصريين ويستترضى العلماء باعتبارهم (مفتاح) كسب ود الجماهير والطريق الطبيعى لاستمالتهم (١) .

(٥)

ومن ملامح الدور القيادى لعلماء الأزهر ومشايخه ما كشفت عنه ثورة القاهرة الأولى والثانية ، فثورة القاهرة الاولى ، كانت ثورة وطنية خالصة - على نحو ما يذهب لويس عوض - قامت احتجاجاً على نظام الضرائب ورسوم التسجيل الذى وضعه الفرنسيون . ولقد تزعم هذه الحركة كوكبة من علماء الأزهر كالشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى (٢) .

وإذا كان لويس عوض يرى أن قيادة ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين كانت بيد الاتراك والمماليك ، الا أن الجبرتى قد أشار الى الدور البطولى الذى قام به السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحرقى فى قيادة هذه الثورة ، حيث انضم اليهم عدد كبير من أهالى البلد ، ولكن نظراً لما ساد

(١) انظر : محمد أمين حسونه ، كنفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر ، المجلد الاول : الوعي القومى ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، صص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث : الفكر السياسى والاجتماعى ، كتاب الالهلال ، المعداد ٢١٧ ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٧٠ .

البلاد من فوضى ، ونظرا لتحول الثورة عن مسارها الطبيعي وتحولها الى مسرح للمذابح الدينية اتخذ العلماء موقفا وسطا لتهدئة الموقف وهو الأمر الذى جعل لويس عوض يرى أن القيادات الدينية أثناء هذه الثورة لم تلعب دورا حاسما حيث تسلم قيادتها أعوان الباب العالى وأصحقاؤه وعملاؤه وهم الذين لم يجدوا سنداً يستشيرون به الغوغاء والحرافيش « ٠٠٠ الا اشارة الفعرة الدينية وارهاب البسطة للجهاد في سبيل الدين واتهام الزعماء المصريين بالخيانة والارتشاء من الفرنسيين وما هؤلاء الزعماء الا أمثال الشيخ الشرقاوى الذى تحدى بونابرت وجها لوجه وألقى بطيلسانه المثلث الألوان على الأرض ، وللشيخ المهدي الذى كان بونابرت يقول عنه وعن زميله الشيخ الصاوى أنهما ليسا (بنو) بلغة الجبرتي ، وعامة أعضاء مجلس الوزراء الذين اعتقلوا واحدا واحدا في فترات مختلفة بسبب مواقفهم الوطنية » (١) .

ولا شك أن زعامة السيد عمر مكرم تستحق وقفة وتأمل (٢) ، فهو من أبرز صفوات المجتمع المصرى في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وهو من أكثر زعامات هذه الحقبة قربا من الجماهير ودنوا من نبض رجل الشارع ، فكان بحق من أبرز الصفوات الدينية المستنيرة ، التى جمعت بين الإدراك والوعى ، ادراكه لقضايا الانسان المصرى ومشكلاته ، لا سيما مواقفه مع السلطة الحاكمة ، ثم وعيه بضرورة الدور الذى ينبغي أن يضطلع به وزملاؤه بالنسبة لقضايا الانسان المصرى بحيث ألا ينحصر هذا الدور في ذلك المفهوم الضيق لمعنى الدين أو لمفهوم رجل الدين .

ولعل اشارتنا السابقة لوضعية السيد عمر مكرم في ثورتى القاهرة

(١) لويس عوض ، نفس المرجع ، صص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) انظر دراسة هامة عن عمر مكرم في : عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، (اعلام العرب) - ٦٧ - ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٧ وانظر أيضا نعمان عاشور ، بطولات مصرية من عمر مكرم الى بيرم التونسي ١٧٥٠ - ١٩٦١ ، روز اليوسف ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٣ .

وانظر أيضا جاد طه ، موقف الجبرتي من ثورات القاهرة ، في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتي : ١٦ - ٢٣ ابريل ١٩٧٤ ، صص ٣٢٥ - ٣٤٠ . وكذلك : صلاح العقاد ، الجبرتي والفرنسيين ، في نفس المرجع السابق ، صص ٣٠٩ - ٣٢٤ .

وانظر : عبد الرحمن الراعى ، مصر في مواجهة الحملة الفرنسية ، صص ٣٢٧ - ٢٤٠ .

الاولى والثانية ما يكشف عن هذا الدور الزعامى الذى لعبه الفقيـب . ويتعاضـم هذا الدور من خلال مجموعة الاحداث والوقائع التى سبقت تولية محمد على مصر ، وابعـد توليته أيضا ، فيقول الجبرتي عن أحداث يومى ١٢ ، ١٣ مايو ١٨٠٥ : « وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسله الى القاضى يرفق فيها الجواب ، ويظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة . فلما وصلتـه التذكرة ، حضر بها الى السيد عمر أفندى ، واستشاروا فى الذهاب ، ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه وغلب على ظنهم أنها منه خديعة ، وفى عزمه شىء آخر ، لأنه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشخاصا لاغتيالهم فى الطريق ، وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر . . . أن لو عوتب بعد ذلك . »

اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعومهم من الدخول الى بيت القاضى ، وقفلوا بابيه . وحضر اليهم أيضا سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له (انا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية) فقال : (ومن تريدونه يكون واليا ؟) فقالوا له (لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير) فامتنع أولا ! ثم رضى . وأحضروا كركا وعليه قفطان ، وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له . . . وذلك فى وقت العصر ونادوا فى تلك الليلة فى المدينة . . . (١) .

ويشير النص السابق الى مجموعة من الحقائق ، لعل من أبرزها التأكيد على الدور الزعامى لمشايخ الأزهر وقيادتهم لحركة الجماهير . . . ومن الحقائق أيضا أن كلا من السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى قد أنابهما الشعب فى التحدث باسمه ، وفى اختيار محمد على واضفاء صفة الشرعية على توليته بالباسه الكرك والقفطان وهو موقف يتماثل الى حد كبير مع عملية التتويج ، الا أنه تتويج شرعى شعبى قام به مندوبو الشعب وممثلوه .

ومن الحقائق اللافتة فى النص السابق أيضا ، مبايعة الشعب لمحمد على واليا على مصر ، وهى مبايعة مشروطة ، وولاية محكومة بشروط الشعب ،

وهو ما جعل أحد المستشرقين يذهب الى ما معناه أن هذه الحادثة تعد الأولى من نوعها في الشرق أجمع وهي أن يختار الشعب واليه بارادته ، ولا شك أن هذا الموقف يكشف عن درجة عالية من الوعي أو النضج السياسى اذا قيس بظروف العصر .

(٦)

وتتجسد زعامة السيد عر كرم في اصراره - كتعبير عن مطلب شعبى - على عزل اللوالى التركى وتنصيب محمد على ، نظرا لأن الأول قد عائد وكابر ورفض التنازل ، ورفض أن ينزله (الفلاحون) على حد تعبيره . ويقص لنا الجبرتى بعض المواقف التى تؤكد زعامة السيد النقيب واصراره على تحقيق أمل من الآمال الوطنية في حينها . فيقول الجبرتى عن أحداث ٢٢ مايو ١٨٠٥ « ركب السيد عمر أفندى والمشايخ ، ومعهم جمع كثير من الناس الى الأزبكية وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة والعصب وطوائف الاجناد والوجاقلية ، وعصب النواحي ، وأهل الحسينية ، والعطوف ، والقرافة ، والرميلة ، والحطابة ، والصليبية وجميع الجهات - ومعهم الطبول والبيارق - حتى غصت بهم الازقة ، فحضروا الى جهات الجامع الازهر ، ثم رجعوا الى الازبكية ولقوا بالمشايخ . » ثم يقول الجبرتى عن أحداث يوم ٢٥ مايو ١٨٠٥ وفي ذلك اليوم ركب السيد عمر أفندى في قلة من الناس وذهب الى بيت حسن بيك أخى طاهر بيك . وكان هناك عمر بيك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة في الكلام طويلة . ومن جملة ما قال : (كيف تعزلون من ولاء السلطان عليكم . . . وقد قال تعالى (أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الامر منكم) ؟ فقال له : (أولوا الأمر العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . . . وهذا رجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة . . . وهذا شئ من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلون ويخلعون » (١) .

تلك هي زعامة الشعب كما تجلت في السيد عمر مكرم وزملائه من العلماء والمشايخ ، وهذا هو الدور الحقيقى للصفوة الدينية كما ينبغى أن يكون ،

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، فنس المرجع ، صص ٦٣٠ - ٦٣١ .

(م ٦ - الزعامة السياسية)

وهو الدور الذى استشعر محمد على خطورته ، فنكل بالسيد عمر وحدد اقامته ثم نفاه الى دمياط رغم افضال الشيخ عليه ، فكان عهد محمد على ، هو العهد الذى تقلص فيه الدور الزعامى لرجال الدين ، وكان هذا يتسق و « ٠٠٠ خطة محمد على وقد استولى على الحكم أن يبعد الشعب ابعادا تاما عن الاشتراك فى توجيه السياسة العامة لبلاده والاستئثار من دون العلماء وغيرهم من ممثليه بالسلطة الطامة » (١) .

وايا كانت ظروف الصراع الذى نشب بين السيد عمر مكرم ومحمد على وعن دور بعض المشايخ فى تعميق الهوة بينهما وخيانة بعضهم للنقيب فانه عن المؤكد أن النزعة التسلطية فى الحكم التى انتهجها محمد على كسلوب أو كصيغة لتسييس امور الدولة (٢) تتسق وموقفه من الزعماء الشعبين والدينين ، حيث كانوا أحد العقبات الهامة التى اعتقد أنها قد تحول بينه وبين الاستئثار بالحكم ، ويؤكد هذا ما ذهب اليه الشناوى من أن « احتفاظ عمر مكرم بزعامته الشعبية فى ظل الحكم الاستبدادى الذى مارسه محمد على فكان أمرا مشكوكا فيه ، لأن اقضاء هذه الزعامة عن الميدان السياسى كان هدفا سياسيا سعى اليه محمد على وضرورة سياسية فى نظره لتنفيذ المخطط السياسى الذى وضعه لنفسه ولأسرته منذ عام ١٨٠٧ » (٣) .

(٧)

يؤكد العرض السابق لارهاصات الزعامة السياسية المصرية مجموعة من الحقائق نوجزها فيما يلى :

١ - لم تشهد مصر زعامة سياسية حقيقية الا على يد عمر مكرم وإن كان الأخير قد استمد زعامته من وضعه كعالم ونقيب للأشراف وأحد أعلام المجتمع المبرزين .

(١) نعمان عاشور ، مطولات مصرية ، ص ٢٢ .

وانظر : أحمد حاتم ، الجبرتي ، محمد على ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الجبرتي ، صص ٣٧٣ - ٣٩٦ .

(٢) انظر : عاطف أحمد مؤاد ، السلطة والطبقات الاجتماعية فى مصر ، دراسة اجتماعية ، تاريخية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، مودعة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٥ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية ، ص ٢٥٠ .

٢ - عرفت مصر الزعامات الشعبية ، وهى الزعامات التى تآلق فيها رؤساء الطوائف والحرف المختلفة ، وهذا يكشف عن أن دور الطائفة أو الحرفة كان يتجاوز حدود طائفته أو حرفته الى الاهتمام بالقضايا العامة للشعب والمشاركة فى الدفاع عن مصالحه ودرء الخطر عنه ، والشاهد على ذلك رؤساء طائفة الجزاره بحى الحسينية .

٣ - لم تكن الزعامات الدينية تقنع بالدور التقليدى لرجل الدين ، بل أثروا الالتحام مع الشعب ، فكانوا سندا له عند كل موقف ، وكل خطب ، ودلينا على ذلك تلك المواقف المشرفة التى وقفها الشيخ الشرقاوى والبكرى والسادات والأمير والعطار ، فضلا عن عمر مكرم بطبيعة الحال .

٤ - كشف العرض السابق عن أن الزعامات الشعبية القيادية قد تركزت فى الصفوات ، سواء أكانت صفوات مهنية حرفية أو صفوات دينية . ولعل هذا يؤكد ما أشرنا اليه فى الفصل الأول وما أشاره التراث الفكرى والنظرى لظاهرة الزعامة السياسية من أن الزعامة ما هى الا صفوة متميزة فى المجتمع ، أيا كان المصدر الذى تستقى منه هذه الصفوة مقوماتها .

٥ - لم تتآلق هذه الصفوات ولم تأخذ أبعادها القيادية أو الزعامية الا من خلال المواقف والأزمات ، فكان الموقف أو الأزمة بمثابة التجسيد الحى لتلك الزعامات وبلورة لأبعادها ، وكشف عن كوامنها .

٦ - لم نلاحظ من العرض السابق أى تأثير للقوى الاقتصادية فى صياغة الزعامات الشعبية أو الاسهام فى تعيين ملامحها .

٧ - من العسير فهم الزعامات السياسية بمعزل عن السياق الاجتماعى للمجتمع الذى نشأت فيه ، وتأكيدا لهذا ، فارهاصات الزعامة السياسية المصرية ، قد خلقتها التناقضات الطبقيّة التى سادت المجتمع المصرى ، فضلا عن نمط الحكم السائد التى جمعت بين مقولتى الظلم والاستبداد . ولكن من المؤسف أنه فى الوقت الذى ساعد هذا النمط السلطوى على خلق الزعامات، كان العامل الرئيسى فى أمول نجمها كما هو الحال مثلا من موقف محمد على من السيد عمر مكرم .

٧ - وتؤكد النتيجة السابقة أن الزعامات السياسية الشعبية كانت دائما مصدر قلق وتوتر للسلطة الحاكمة ، وكانت هذه السلطة تنظر اليها

دائماً باعتبارها ظواهي غير سوية في المجتمع ، وقد تتخذ السلطة ازاءها واحدا من موقفين اما محاولة للاستقطاب سعيها وراء كسب مودتهم تحقيقا لصيغة التوازن في المجتمع وقضاء على الانشقاقات والتوترات في المجتمع .
واما أن تحاول التنكيل بهم ومحاربتهم وارهابهم لكسر شوكتهم والنيل من قوتهم ، حتى لا يجد الشعب فيهم السند أو المعين .

٨ - وفي الوقت الذي كانت تنظر فيه السلطات الحاكمة الى الزعامات السياسية هذه النظرة نجد الشعب قد اتخذ موقف اللتحم الذي يرى في الزعامات ملاذا وحصنا يلوذ به ويتحصن فيه ، كما يجد فيهم القوة التي بدونها قد يعجزوا عن تحقيق أهدافهم .

(٨)

وأخيرا ، اذا كنا قد افترضنا أن ارهاصات الزعامة المصرية لم تكن زعامة سياسية بالمفهوم المتعارف عليه في عصرنا الراهن وكما تطرحه بعض مقولات الفكر السياسي والاجتماعي ، الا أننا - مع ذلك - لا يمكن أن نجرد تلك الزعامات من مقوماتها القيادية (١) أو قدراتها الزعامية ، وذلك اذا ما وضعنا في الاعتبار ظروف العصر ومتغيرات البناء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع الذي نشأت فيه هذه الزعامات وتخلقت .

(١) يذكر عبد الرحمن الرافعي عن كفاءة عمر مكرم الزعامية وجانبية الجماعية ما نصه ان السيد النقيب كان منطورا اليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وملجأ باوى اليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيهم طفيان الحكام ، (عبد الرحمن الرافعي ، مسر في مواجهة الحملة الفرنسية) ، ص ٢٤٠ .

المبحث الثاني

أحمد عرابي

كنموذج للصفوة العسكرية الوطنية

obeikandi.com

تمثل زعامة أحمد عرابي أحد محاور الخلاف بين مؤرخي حقبة الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وهو ذلك الخلاف الذى تكشف من خلال محاولات رصد وقائع الاحداث العرابية وتقويمها ، وتقويم شخصيته عرابي وشرعية زعامته وحقيقة وطنيته ودرجة نضجه أو وعيه السياسى ، ومدى تعاضم طموحه الشخصى بالمقارنة بكم انجازاته الوطنية والسياسية وكيفها .

والملاحظ أن الاختلافات التى تكشف بين مؤرخى تلك الحقبة وبين راصدى الحركة العرابية ومحلى شخصية صاحب هذه الحركة ، قد عكست لنا اختلافات فى طبيعة (المنهج) المستخدم للتحليل وفى طبيعة (الرؤية) أو الايديولوجية التى حددت هذا المنهج وبالتالي انعكست على كل متتاليات التقويم (*) .

* - انظر مجموعة من الدراسات والبحوث التى أرخت للثورة العرابية وزعامة أحمد عرابي والتى تعكس التباينات فى رؤى المؤرخين فى تقويمهم للثورة وشخصية زعيمها :
- عبد الرحمن الرافعى ، الزعيم أحمد عرابي ، كتات الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- الفريد بلنت ، التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا لمصر (خمسة أجزاء) سلسلة احترا لك .

- أحمد عرابي المصرى ، مذكرات عرابي « كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ١٢٩٨ - ١٢٩٩ الهجريتين ، وعامى ١٨٨١ - ١٨٨٢ الميلاديتين ، العددان ٢٣ ، ٢٤ من سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- محمود الخفيف ، أحمد عرابي ، الزعيم المفترى عليه ، الجزء الاول ، كتاب الهلال .
- صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

- رفعت السعيد ، الواقع الطبقي للثورة العرابية ، مجلة الطليعة ، العدد ٩ ، السنة السادسة ، سبتمبر ١٩٧١ .
- رفعت السعيد ، الاساس الاجتماعى للثورة العرابية ، مكتبة مدبولي ، فبراير ، ١٩٦١ .

- عبد العظيم رمضان ، قيادة الثورة وفكرة السلطة ، مجلة الطليعة ، العدد ٩ ، السنة السابعة ، سبتمبر ١٩٧١ .
- النصوص الكاملة لمحاضر التحقيقات مع أحمد عرابي ، الطليعة ، العددان ٢ و ٦ فبراير ١٩٦٦ ويونيو ١٩٦٧ .

ومنهجنا منذ البداية يستمد أصوله من حتمية العلاقة بين الفكر والواقع وأنه من المستحيل فهم ظواهر المجتمع (ومنها الظواهر السياسية والتي يعتبر أحمد عرابي بثوريتها وفكره أحد مظاهرها) بمعزل عن سياقها التاريخي والبنائي ، وهو ما يميزنا نحن الباحثين في علم الاجتماع السياسي عن غيرنا من المؤرخين التقليديين والراصدين الكلاسيكيين .

وبطالعنا عبد الرحمن الرافعي بأول تقويم لشخصية عرابي حيث يذهب الى أنه كان بلا منازع ذا شخصية قوية جذابة تؤثر في الأفراد والجماعات . . فله من هذه الناحية أخص صفات الزعماء . ولولا هذه الموهبة لما استطاع أن يجتذب اليه محبة ضباط الجيش وجمهرة الأمة ، وينال ثقتهم ويملي إرادته عليهم ، وكانت له أيضا موهبة الكلام والصوت الجهوري . وهذه أيضا من مزايا الزعماء التي تحببهم الى نفوس الجماهير . وقد كان لخطبه تأثير السحر في نفوس سامعيه . وكان بلا مراء يريد الخير لبلاده ، ويريد لها الحرية والاستقلال . وعلى هذا الأساس قامت دعوته « (١) » .

فالصورة كما قدمها للرافعي تجعل من عرابي أحد الشخصيات ذات الجاذبية السحرية من حيث قوة التأثير ومزية الصوت الجهوري ، وهي كلها من السمات التي قد تؤهل حقيقة للقيادة ، وهي بعض خصائص القيادة الكارزمية كما يذهب ماكس فيبر التي تنهض أولا وأخيرا على مواهب القائد وملكوته الخاصة .

ولكن من المؤكد أن الخيط الذي يفصل بين الزعيم أو القائد السياسي وبين (المهيج) السياسي خيط يكاد لا يرى ، فالصورة كما قدمها الرافعي لعرابي تكاد تقترب من صورة المثيرين السياسيين الذين قد يكون لديهم بعض ملامح القيادة أو الزعامة ، ولا نعتقد أن عرابيا لم يكن محض مهيج سياسي وإن افترق (بعض) المقومات الزعامة الحقيقية . ولقد آن لنا أن نؤكد أن السمات الكارزمية وحدها لا تخلق زعيما سياسيا حقيقيا بقدر ما تقحم مهيجا جماهيريا ، لذلك فإن ما أشار اليه فيبر Weber في تصنيفه للقيادات أو للسلطات عن القيادة أو السلطة الكارزمية أو الإلهامية قد يصدق تماما -

(١) عبد الرحمن الرافعي الزعيم أحمد عرابي ، كتاب الهلال ، ص ٢١٠ .

فيما أتصور - على ما نسميه بالمهيج السياسي ، أما الزعيم السياسي فهو نمط آخر يجمع بين للكات النفسية والعقلية - وقد تكون الفيزيكية أيضا - من جانب وتميز الرؤية أو الايديولوجية السياسية والفكرية من جانب آخر وهو الأمر الذي نفتقده فيما يسمى بالزعامات الكارزمية أو الالهامية .

وتتأكد الصورة الكارزمية لعرابي فيما يعتقد المؤرخون وفيما ذهب اليه صلاح عيسى من أن عرابياً كان يتميز بنوع « ٠٠٠ » من الرومانتيكية ، غلبت على تصوره العام للأشياء وهي مظهر من مظاهر الوعي لبعض عناصره . وهو ما أجمع عليه كل من عرفه من أصدقائه بلنت ونينيه مثلاً - ولعل هذا راجع الى حسه الصوفي أساسا ، بيد أن ذلك قد ساهم - مع عوامل أخرى - في تردده في بعض المواقف ، وافنقاره الى العقلية العملية ، التي تتخذ قرارات حاسمة ونهائية عندما يتطلب الأمر ذلك « (١) » .

ولا شك أن عرابي بنزعاته الالهامية هذه قد نبع من صفوف العسكريين باعتباره أحد الصفوات العسكرية المتميزة ، الا أن روحه كفلاح مصري قد أضفت عليه قسمة خاصة ونظر اليه الشعب باعتباره منقذ الأمة من غطرية الحكام وتعالى الجراكسة . ولقد ظلت سماته الكارزمية أحد المحددات الأساسية له كتأند للأمة في حقبة من أخطر الحقب التي مرت به .

ويبدو أن السمات للكارزمية لدى عرابي قد تعاضمت حتى بدا للبعض في صورة قديس ، وهو احساس لم يقتصر على المصريين فقط ، بل تجاوزه الى الأجانب أيضا . ويروى بلنت واقعة تؤكد هذا حيث يقول أنه شاهد بنفسه عرابي وهو يستقبل وفدا من الجالية الايطالية فاذا بهم ينهالون على يديه تقبيلًا ، ويؤكد أن عرابي قد بدى لهم في صورة قديس يدافع عن الحرية « (٢) » .

ويصف بلنت عرابي مؤكدا ما ذهب اليه الرافعي في وصفه لعرابي ، حيث يقول بلنت « ان عرابي نموذج للقائد الفلاحي ٠٠ طويل ٠٠ عريض

(١) صلاح عيسى ، الثورة للعربية ، ص ٤٧٤ .

(٢) انظر : صلاح عيسى ، ملامح من الخريطة الفكرية للثورة العربية ، مجلة الطليعة ،

لعدد التاسع ، السنة الرابعة ، سبتمبر ١٩٧١ ، ص ٤٧ .

المنكبين ، بطييء الحركة نوعا ما ٠٠ يشبه في مشيته مشايخ البلاد ٠٠ اسممر الوجه إلى الحد الذي كان يجعل الانترك ينفرون منه ٠٠ ذا نظرة غريبة ٠٠ قد تبدو جامدة وقد تبدو حاملة ٠٠ لكنه كان مبتسما على الدوام وما أن يتكلم حتى يكتشف الانسان طبيته وذكاءه ٠٠ لقد كرهه رياض باشا منذ اللحظة الأولى وحتى رجال الاصلاح في الازهر كانوا يقللون من قيمته كسياسي ٠٠ لكن ما يميز عرابي هو أنه فلاح من طبقة الفلاحين ٠ كان واحدا من هذه الطبقة ٠٠ وليس مجرد قائدا لها ٠ هو قطعة من الفلاحين يتصف بنفس صفاتهم ٠٠ (١)

ويبدو أن الانتماء الطبقي القروي لعرابي قد صاغ - إلى جانب الصفات الكازمية له - الشخصية الزعامية له رغم نصيبه الضئيل من التعليم والثقافة ٠٠ ولا شك أن حماسه الوطني ووعيه بالتفاوت الطبقي وإدراكه لماهية الحكم المطلق وغياب البناء الدستوري هو ما دفع به إلى الانتماء إلى الحزب الوطني (جماعة حلوان) الذي تزعمته جماعة البشوات الوطنيين وعلى رأسهم شريف باشا وسليمان باشا وغيرهما من البشوات الذين كانوا يطالبون بالدستور والبرلمان والحكومة المسؤولة ٠

وأيا كانت الاسباب التي دعت هؤلاء البشوات إلى تكوين الحزب الوطني وإلى المطالبة بالحكم الدستوري البرلماني (٢) ، إلا أن الدعوة في حد ذاتها كانت دعوة ونغمة جديدة في حينها ، وتكشف عن وعي وطني متميز ٠ ورغم تصدر الاعيان للحركة الدستورية وتزعمهم للحزب الوطني ، إلا أن قاعدة هذا الحزب قد اتسعت بحيث استوعبت أعدادا كبيرة من الوطنيين الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا والشعبية ومن الصفوة العسكرية الوطنية والمستفيرة ومنها أحمد عرابي ٠

(١) نقلا عن رفعت السعيد ، الأساس الاجتماعي للنزعة العربية ، ص ١٣٠ .

(٢) يذهب رفعت السعيد - معتمدا على ما أشاره بلنت - إلى أن هؤلاء البشوات لم يكونوا الا طلاب سلطة وحكم وان دعوتهم للمطالبة بالدستور والبرلمان لم تكن دعوة خالصة بل كان دعوة موجهة أو ممهدة لكي يستولوا على الحكم والسلطة ٠ انظر : رفعت السعيد ، نفس المرح ، صص ١٤٣ - ١٤٤ .

والى جانب هذا الحزب المدنى الذى انضم اليه عرابى ، نجد أن هناك حركة مقابلة داخل صفوف الجيش ، وهى الحركة التى قامت أساسا كرد فعل للتفاوت الطبقي داخل صفوف الجيش لا سيما بين الجنود المصريين من جهة والجنود الاتراك والشراكسة من جهة أخرى ، وكنتاج للتفكك داخل القيادات العسكرية وفشلها فى حملة الحبشة ، ومن ثم كانت هذه الحركة أو هذا التنظيم العسكرى السرى الذى رأسه على الروبى ، فأنضم اليه عرابى لاسيما وأنه - أى عرابى - كانت له سمعة ومكانة بين الجنود والضباط كأحد الوطنيين المتحمسين ، ولقد انضم الى هذا التنظيم « ٠٠ مجموعة من الضباط الذين يلهون حماسا ٠٠ محمد عبده ، خضر خضر ، على فهمى ، عبيد العال حلمى ، ألفى يوسف وغيرهم ٠٠ » (١) .

ولا شك أن هذه النخبة العسكرية المستنيرة والتى عكست وعيا متميزا للعسكرى المصرى قد أضافت الى مظاهر السخط مظهراً ، أو بعدد آخر ، هو القدرة التنظيمية على تجميع القوى الوطنية ، لا سيما وأن هذه القوى كانت تعكس كافة الطبقات الاجتماعية ولم تكن قاصرة على طبقة دون غيرها ، وإن كانت الطبقة الدنيا القروية قد لعبت دورا هاما فى هذا التنظيم نظرا لانتماء غالبية الجنود وكثير من الضباط ومنهم أحمد عرابى الى هذه الطبقة الكادحة المطحونة ، التى كانت تشكل غالبية أفراد هذا التنظيم العسكرى (٢) .

ومن المؤكد أن البداية الحقيقية للحركة العرابية بشعبيتها وبقدرتها على التعبير عن الطبقات الدنيا فى ريف مصر وحضره قد انطلقت من هذا التنظيم الذى انصهرت فيه آمال أمة بكاملها ، وتفاعلت فيه عوامل السخط والكراهية جنباً الى جنب مع مظاهر الحماس والوطنية والرغبة فى الخلاص من أزمة الحكم التركى .

وهكذا كان عرابى ذلك الفلاح الوطنى ، ابن القرية المصرية ، زعيم الثورة ، ممثلاً للروح المصرية فى بساطتها وعنفها ومودتها وحماسها وحبها

(١) رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

(٢) رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

لقرب هذا البلد ، هكذا كان عرابى ذلك الجندى ، البسيط ، القوى ، محدود الثقافة ، ممتلىء الحماس ، المفعم بالوطنية . هكذا كان عرابى بتناقضاته هذه ممثلاً لنموذج ثورى انبثق من النخبة العسكرية المستنيرة وأحد الفلاحين الذين . . مزقوا ستار الظلام يتعلموا ويصبحوا ضباطاً فى الجيش . . هو ابن لواحد من هؤلاء الفلاحين الذين ذاقوا كل ألوان الظلم والحرمان ، والتي مارست عليهم السلطات الحاكمة كل مظاهر القهر والعدوان (١) .

وهنا يكمن السر فى هذا الحب الجماهيرى وهذه الجاذبية الشعبية التي تمتع بها عرابى ، انتماؤه لريف مصر ولفلاحى مصر ولطبقات الطحونة فى مصر (٢) ، فكان تجسيدا لآمال الأمة ، وصرخة مدوية مزقت حجب الليل . . لبل السلطة الكئيب فكانت هذه الاستجابة الفورية لكل دعاواه (٣) وهذا التأييد الحارف بكل عفوية وتلقائية .

لقد استطاع عرابى بعبقرية ان يجمع بين ثلاث مزايا : اولاً انتماؤه العسكرى وثانياً انتماؤه الطبقي المتواضع ثالثاً جانبية الجماهيرية كنتاج لموهبته القيادية وكفاءاته الزعامية وحماسه الوطنى المتدفق . ولا شك ان الحاذبية الجماهيرية قد تضاعفت فى الوقت الذى بدت فيه كراهية السلطة الحاكمة لعرابى تزداد عنفا وضراوة . فكان عرابى يمثل (ظاهرة) ثورية فى حينها ، وهى الظاهرة التى تألفت بفضل الظروف السياسية والاجتماعية ونمط الحكم السائد والتناقضات الطبقيّة الصارخة عسكرياً واجتماعياً . ولا أعتقد أن موهبة عرابى ما كانت لتتألق لولا هذه الظروف التى جسدت هذه الموهبة وفجرت كوامن الثورة فيها .

(١) انظر فى هذا المعنى : رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(٢) انظر دراسة عامه عن علاقة الفلاحين بالثورة العربية ومساندتهم لعرابى باعتباره ممثلاً لهم فى : على بركات ، الفلاحون بين الثورة العربية وثورة ١٩١٩ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى والعشرون ، ١٩٧٥ صص ٢٠١ - ٢٤٨ .

(٣) من مظاهر هذا التأييد تلك الاستجابة السريعة لنداء عرابى الذى صدر فى صورة منشور يطلب فيه انابة الأمة له فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد والذى نصه « اعلمو يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المنتظمين فى تلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم . . فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم من ضمن هذه النشرة وهى الكتابة المقدرة بها أن اكون نائباً عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد » (نقلا عن رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٢٥) .

ولقد اعترف أحمد عرابي بفضل الظروف في خلق زعامته حينما قال لصديقه بلنت « اننى ممثل الجيش الا أن الظروف هي التي دفعت الجيش لأن يثق بى ، لكن الجيش ليس سوى ممثل للشعب وحام له وسيظل كذلك حتى يستغنى الشعب عن هذه الحماية ، ولهذا فاننا الآن نمثل روح الحركة الوطنية التي تحول بين الوطن وبين الحكام الاتراك من أن يمثلوا به ويعيدوه الى عهد التحكم » (١) .

(٣)

وتثير قضية انتماء عرابي الى الصفوة العسكرية Military Elite قضية حزئية هامة تتعلق بذوعية الصفوات المعبرة عن كوامن الشعب ونفسية الأمة وآمالها ، بمعنى أى من صفوات المجتمع أكثر قدرة على تجسيد روح الشعب وبطوره أهدافه ومن ثم الدفاع عنها ومحاولة تحقيقها ؟ هل هي الصفوة العسكرية ؟ هل هي الصفوة الاقتصادية (الاعيان) هل هي الصفوة المثقفة ؟ هل هي الصفوة الدينية ؟ أم هي الصفوة السياسية ؟ .

ولا شك أنه من العسير أن نجد اجابات على التساؤلات السابقة دون أن نضع في الاعتبار عسداً من الملاحظات :

١ - ان محاولة تحديد الصفوة المعبرة عن الشعب محكوم بمقولاتى الزمان والمكان ، بمعنى أن الصفوة التي قد تعبر عن الشعب في حقبة ما في مجتمع ما ، قد تحل محلها صفوة أخرى في حقبة أخرى في نفس المجتمع . كذلك فان الصفوة أو الصفوات التي قد تجسد آمال مجتمع ما قد تعجز نفسها عن تجسيد آمال الشعب في مجتمع آخر . ولا شك أيضاً أن مقولاتى الزمان والمكان محكومة أيضاً بالأوضاع الحضارية والثقافية للشعوب .

٢ - والأوضاع الحضارية والثقافية للشعوب لا شك أنها تفرز نوعيات خاصة من الصفوات تتسق وطبيعة هذه الأوضاع ، ولعل هذا يفسر لنا سيادة الصفوات العسكرية لدى شعوب العالم الثالث ذات المستويات الثقافية والحضارية المتواضعة ومنها المجتمع المصرى .

(١) انظر صلاح عيسى ، ملامح من الخريطة الفكرية للثورة العرابية ، ص ٤٩ .

٣ - يرتبط الوضع القبادى للصفوات بطبيعة البناء الطبقي Class Structure للمجتمع من جهة وديناميات السياق السياسى Political Context للمجتمع من جهة أخرى .

٤ - تؤكد الملاحظتان الثانية والثالثة أن تزعم الصفوة العسكرية للحركة العربية وثيق الصلة بالوضع الثقافى والحضارى لصر فضلا عن الوضعية الطبقيّة والسياسية للمجتمع المصرى آنذاك . كما أنهما تفسران السبب فى ضالة - أو اندام - الدور القيادى للصفوة المثقفة المصرية رغم محاولتهما أن يكون لهما مثل هذا الدور .

٥ - يتوقف الدور الزعامى للصفوة (أيا كان نوعها) على مدى تمثيلها نفسية الشعوب وقدرتها على ترجمة أحلامها والتعبير عن آمالها ، التعبير الصادق الذى يكشف عن قدرات ابداعية خلقة فى تحقيق الآمال المرجوة للشعوب وفى تحقيق ما يمكن تسميته بالتحديث السياسى والاجتماعى، ورغم أن الصفوة بطبيعتها قلة Minority ، والقلة كما يرى بعض علماء الاجتماع السياسى لا تعبر عن الكل بل تعبر عن مصالح الصفوة أو الطبقة التى تمثلها ، ولما كنا لا ننكر سلامة هذه الرؤية لا سيما إذا ما قدر للصفوة أن ترتبط ارتباطا رسميا بالسلطة والحكم ، الا أنه من المؤكد أن الصفوة - أى صفوة - سوف تظل دائما المنبع الاساسى لتخلق الزعامات السياسية والفكرية ، لا سيما إذا ما نظرنا الى الصفوة بمنظورها الشمولى ، بمعنى أنها لا تعنى تميزا طبقياً ، بقدر ما تعنى تفردا بسمات تؤهل للقيادة وأحيانا للحكم . ولا شك أن الزعيم أو القائد لابد وأن يتميز ومن الحتمى أن يتفرد ومن المنطقى أن ينتمى الى صفوة والا أضحى شخصا عاديا ، ولكن لا شك أن نجاحه كزعيم يتوقف على مدى نجاحه فى تجاوز مصالح طبقتة وارتباطه عضويا بالجماهير ، والا سيفقد مقرمات زعامته الشعبية ويصبح - ممثلا - لجماعته وطبقتة وليس زعيما بالمعنى الجماهيرى . ولكن ينبغى أن نؤكد أننا لا ننادى بحكم الصفوة ، لأنه حكم بطبيعته حكم ديكتاتورى غير جماهيرى وانما نؤكد على التعددية فى الحكم مع ايماننا أن الصفوات سوف تظل دائما مصدرا أساسيا للزعامات السياسية بالشروط آنفة الذكر .

(٤)

وترتبط ظاهرة التحديث السياسى والاجتماعى كأحد أهداف الزعامة السياسية الحقيقية بمدى توفر ما اسمناه بالايديولوجية أو المنظومة الفكرية

للزعيم أو على أقل تقدير بمدى توفّر الرؤية الفكرية بمظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لصاحب التجربة الزعامية ، وذلك على اعتبار أن عملية التحديث لا يمكن أن تتحقّق بمعزل عن الفكر والا تحولت الى مجموعة من الاحراءات غير الواعية والتخبطات العشوائية العفوية غير الناضجة .
ملا تحديث بلا رؤية ولا تجديد بلا فكر .

• عرابى كأحد الزعامات الالهامية الكازمية لم تكن لديه - فيما تصور - رؤية متكاملة أو ايدولوجية محددة المعالم ، متكاملة الابعاد للتحديث السياسى أو للتخير التنائى فى مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل كان لديه تصور عام تجسده مجموعة من القيم السياسية والاجتماعية التى كان يؤمن بها عرابى ، وهى قيم يغلب عليها الحماس الوطنى الذى لم يبلغ الى مرتبة الرؤية المتكاملة أو الايدولوجية ذات الابعاد المحددة .

• ولقد تجسدت مجموعة القيم هذه فى برنامج الوزارة الوطنية برئاسة البارودى والتى تولى فيها عرابى نظارة (وزارة) الحربية . وهذا البرنامج الذى أشار اليه بلنت يكشف عن تصور (اصلاحى) للوزارة ، قد يكون عرابى مصدره الأساسى ، وقد يكون أحد المشاركين فى وضعه ، وقد حدد بلنت هذا البرنامج كما تحدث عنه عرابى فيما يلى :

- الغاء نظام السخرة الذى يفرضه الباشاوات الأتراك على الريف المصرى .
- القضاء على اقطاع الماء واحتكار الباشاوات والأتراك لمياه الفيضان .
- حماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم فى أجساد الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة .
- اصلاح القضاء فهو ملئ بالفساد .
- نشر التعليم بالنسبة للرجال والنساء على السواء .
- انتخابات حرة لبرلمان جديد (١) .

(١) انظر : رفعت السعيد ، الواقع الطبقي للثورة العربية ، مجلة الطليعة ، سبتمبر

ونسلاحظ أن البرنامج السابق لم يتعد مجموعة من (الأمانى) أو
للمتطلبات ، وهى أمانى اختلطت فيها الأبعاد الاجتماعية بالأبعاد السياسية
والاقتصادية ، ولكن رغم ذلك فإنها تعكس وعيا - وإن كان محدودا - ببعض
قضايا الإنسان المصرى .

ورغم التحفظ السابق إلا أن المنتخب لمجموعة الرسائل التى تبودلت بين
عرابى وصديقه بلنت يكشف عن أن هناك أمرين كان يشعر عرابى أن شعبه
يفتقدهما ، أولهما الحرية(*) وثانيهما العدالة ، ففى رسالة بعث بها الى بلنت
فى أول ابريل عام ١٨٨٢ يقول عرابى « ان أى انجليزى حر لا بد له وأن يؤيد
هؤلاء الذين يسعون لتحقيق الاستقلال لوطنهم ، ويسعون للإصلاح ولإقامة
حكومة عادلة . وإن هدفنا الوحيد هو انقاذ وطننا من الذل والعبودية والظلم
والجهل وأن نرفع شعبنا الى المستوى الذى يمكنه من مقاومة أية محاولة
لإعادته الى ظلمات الماضى » (١) .

(٥)

والقضية السابقة ، تعكس لنا بجلاء قضية العلاقة بين كل من الزعامة
الكاثرية والفكر ومحاولات التحديث السياسى ، فالبعض قد يرى أن فى
السمات الكاثرية الإلهامية ما يكفى لنجاح أى حركة ثورية حتى وإن لم
يتوفر عنصر الرؤية أو الفكر لدى صاحب هذه السمات وبالتالى فإن عملية
التحديث السياسى أى تغيير صيغة الحكم السائدة وما يترتب عليها من
مشاركة سياسية وتغيير نمط السلوك السياسى للأفراد .. الخ تصبح
رهينة بكاثرية هذا الزعيم والهاميته .

ونحن لاندعى أن عرابياً لم يكن بلا فكر ، ولكنه فكر لم يرتق الى مستوى
الرؤية المتكاملة أو النظرية محدده المعالم . ولقد اختلف بشأن الفكر العرابى
طائفة المؤرخين الذين تناولوا الشخصية العرابية ، ففى الوقت الذى يرى فيه
صلاح عيسى أن عرابيا كانت لديه مجموعة من الرؤى السياسية السليمة ،

* لعل فى قول عرابى الماثور لتوفيق عابدين الشهيرة فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ما يكشف
عن ادراك عرابى لقيمة الحرية حيث قال « لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ،
فوالله الذى لا اله الا هو اننا لن نورث ولن نستعبد بعد لليوم » .
(١) انظر : رفعت السعيد ، نفس المرجع ، صص ٤٨ - ٤٩ .

وبالذات فكره الديمقراطي الذي كان - حسينا يشير عيسى - جوهر موقفه (١) يرى آخرون ومنهم الرافعي أن عرابيا لم يكن « ٠٠٠ على حظ كبير من الكفاية السياسية وبعد النظر ٠٠ ومن هنا جاء شططه في كثير من المواطن وعدم تقديره للأمور وملابساتها ٠ وعرابي معذور في ذلك لأنه لم ينل حظا كبيرا من الثقافة والالام بشؤون السياسة وأطوارها ٠ فهو لا يعدو أن يكون ضابطا من تحت السلاح ، لم يتخرج في المدارس الحربية ولا المعنوية ٠ ولم يعلم نفسه بنفسه تعليماناضجا ، ولم يكن له من العبقرية ما يغنيه عن الدرس والاطلاع والتحصيل » (٢) .

ورغم قسوة هذا الحكم وتطرفه والذي جرد أحمد عرابي من كل مزية وهو الأمر الذي لا تنقره الحقيقة ولا يعكسه الواقع ، ولا يتسق مع قواعد الحكم الموضوعي ، ولا منطق العدل والانصاف ، الا أنه يعكس التباينات التي عادة ما تقوم بين المؤرخين عند تقديرهم للظواهر أو القضايا التي عادة ما يؤرخون لها ، وغير خاف أن للابعاد الايديولوجية دورها غير المذكور عند القيام بعملية التقويم هذه .

وتتأكد تلك التباينات اذا ما تعرضنا لرؤية ثالثة قدمها بلنت عند تقويمه لزعامة عرابي حيث يقول أنه « كان يحيط نفسه برجال الدين لأنه كان مسلما ورعا وكانت الاوقات التي يجب أن يقضيها في تنظيم وسائل الدفاع يصرفها في الادعية والصلوات ، ويظهر أنه لم ينقطع عن هذه الاعمال الى النهاية ، ومن الصعب أن يعرف الانسان ما كان هياه من التقاير الحربية ٠٠٠ ان عرابي لسوء حظ الحرية لم يكن قويا ، وانما كان يجهل أوروبا جهلا تاما ، ويجهل أيضا الطرق والأساليب السياسية الغربية » (٣) .

ومن الجلي أن بلنت قد تضافر مع الرافعي وقدم صورة قاتمة لأحمد عرابي لا سيما في وصفه اياه بالجهل وعدم الخبرة والدراية وضعف شخصيته وبعده عن الحنكة العسكرية وانصرافه الى ممارسة الطقوس الدينية ، فضلا عن عدم معرفته بالاساليب السياسية الغربية ٠ ولا شك أن وصف بلنت هذا

(١) أنظر : صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، ص ٤٧٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم أحمد عرابي ، صص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) أنظر صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(م) ٧ - الزعامة السياسية

يجرد عرابيا أيضا من سماته الكارزمية وبالتالي يكون قد جرده من أبسط السمات القيادية ، الأمر الذى تنقضى معه شرعية انتماؤه الى الزعامات أو القيادات السياسية .

ولكن قد يكون عرابى - بالفعل - ذا حظ متواضع من العلم والثقافة والمعرفة ، وقد يكون - أيضا - نصيبه من الخبرة أو الدراية السياسية محدوداً بأفاق معينة وهو ما يقلل كثيرا من مقومات زعامته ، ولكن ما نختلف فيه مع بلنت أن عرابيا كان ذا شخصية ضعيفة وهو ما يتناقض مع مواقفه الجريئة إزاء السلطة الحاكمة (موقفه من الخديو توفيق) ومن التفاف الجنود والضباط حوله ومن خلال جاذبيته الجماهيرية وحضوره الخطابى ومقدرته على التأثير فى الآخرين ، وهو ما يجعلنا نؤمن بزعامته الكارزمية وبقيادته الإلهامية .

(٦)

ولكن من المغالاة والجحود أن نجرد عرابيا كلية من أى تصور للاصلاح (١) رغم اتهام البعض له بالجهل - كالرافعى - وعدم معرفته بالطرق والاساليب السياسية الغربية كبلنت ، الا أنه ظل بحسه الوطنى الثورى وبانتمائه الطبقي والعسكرى ، أحد الصفوات الثورية العسكرية المتميزة ، وإن لم يرق الى مستوى الزعامات السياسية المتكاملة .

ثم تثار قضية أخرى متعلقة باتهام البعض له بولعه بالسلطة ، وهو اتهام يثير لدينا قضية أخرى هى علاقة الزعامة السياسية بالسلطة . فالزعامة السياسية الحقيقية - كما نتصورها - تظل دائما خارج السلطة الشرعية الرسمية ، تعمل بحرية وبدون تقيد بقيود السلطة بمعناها الرسمى ، لذلك فاننا عادة ما نميز بين الحاكم بوضعيته السلطوية الرسمية . وبين الزعيم السياسى كرمز للجهاد الوطنى وكتجسيد لآمال أمتة ، وتفقد الزعامة كثيرا من مقوماتها اذا ما بدأت تفكر فى تحقيق مطالب سلطوية رسمية ، لأن الزعامة - بطبيعتها - سلطة تتجاوز كل المعانى السلطوية التقليدية ، فهى سلطة

(١) انظر البرنامج الذى قدمه عرابى بعد هزيمة الثورة للورد دفرين فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢ ، وهى برنامج يتضمن تسعة عشر عنصرا تكشف عن تصور خاص لكيفية الاصلاح السياسى والاجتماعى ويكشف فى الآن نفسه عن حسن خاص تجاه قضيتى العدالة والحرية .
اصلاح عيسى ، المرجع السابق ، صص ٤٦٧ - ٤٧٠ .

خارج الشرعية ، وما شرعيتها الوحيدة الا تأييد الجماهير لها ، وان كان هذا لم يحل دون تكون هناك حالات - وهى بطبيعتها حالات فريدة - جمع فيها بعض الزعماء بين الزعامة السياسية والسلطة الرسمية .

وأيا كانت نية عرابى فى الاستيلاء على السلطة . وقد كان بالفعل أحد وزراء وزارة البارودى - فانه ما كان ينبغى أن يفكر - هو فى حكم الزعيم - فى أن تكون له وضعية رسمية فى حكم البلاد ، بل كان عليه أن يظل حاكما (عن بعد) (١) ، حيث يحقق له هذا (البعد) تأثيرا أقوى ، ويكون بمثابة الحارس على حرية الشعب ، المراقب لتصرفات الحكام ، الموجه لسلوكها ، فهو بذلك قوة فوق كل قوة .

ولكن يبدو أن الصفوات العسكرية دائما - والتي منها عرابى - لا سيما فى بعض البلدان المتخلفة - كنتيجة لضعف الخبرة السياسية ، فضلا عن القصور النسبى فى نوعية الثقافة وكيفية ، عادة ما تخطط بين الزعامة والحكم ، وتعتقد أن قيادتها لحركة ما (ثورة أو انقلاب ٠٠٠ الخ) يؤهلها لحكم البلاد ، ويكون سندنا شرعيا لتولى السلطة ، وهذا ما وقعت فيه مصر بعد ذلك باكثر من سبعين عاما وكان التاريخ يعيد نفسه .

(٧)

وفى نطاق البحث عن ماهية الزعامة العرابية والكشف عن دينامياتها والتعرف على مواطن قوتها ومظاهر ضعفها وسر عبقريتها ، يقودنا الحديث الى محاولة تحليل موقف عرابى من التيارات السياسية فى عصره لا سيما وان أساطين هذه الاتجاهات السياسية كانوا ممن ينتمون - بحكم الطبقة - الى عليّة القوم ، وان عرابيا بحكم ولائه القروى وانتمائه الطبقي كان يقع فى قاع السلم الاجتماعى ، فكيف استطاع عرابى اذن أن يكون له دور وسط هذا التيار

(١) لقد نكل عرابى بعد توليته وزارة الحربية بالعديد من خصومه وكم أفواه معارضية واغلق بعض الصحف المناهضة له فاستحال الى حاكم أوتوقراطى وهو الذى قام أصلا لمناهضة للنزعات الاستبدادية فى الحكم . انظر عاطف أحمد فؤاد الحسنية والفكر السياسى المصرى دراسات تحليلية فى علم الاجتماع السياسى (الفصل الاول) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ . رانظر أيضا ابراهيم عبده ، الديمقراطية بين شيوخ الحارة ومجالس الطراير ، سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٨ . وانظر كذلك عبد اللطيف حمزة ، الصحافة المصرية فى مائة عام .

السياسى القوى • الذى جمع بين الأتراك والشراكسة الدستوريين كشریف باشا وعثمان كینج وعمر لطفى باشا ، وبين الاقطاعيين المصريين سلطان باشا والشريعى باشا وغيرهم من الاقطاعيين والذى جمع أيضا بين كبار الموظفين كعلی مبارك باشا ، ثم الامام الشيخ محمد عبده والشيخ خليل الهجرسی من قادة التقدم فى الأزهر ثم بقايا (مصر الفتاة) (*) وتيار جمال الافغانى ومحمد عبده •• وسليم النقاش وسعد زغلول وأویب اسحق (١) ؟ •

وهنا تكمن أحد أسرار عبقرية عرابى ذلك الفلاح القروى صاحب الفكر السياسى والاجتماعى المتواضع ، كيف استطاع وهو بوضعيته هذه أن يكون أحد أقطاب الحزب الوطنى (جماعة حلوان) وأن يفرض تصوراتہ - وهو الفلاح - على هذا الجمع المتميز من عليه القوم ؟ ، وأن يشترك - وبصورة فعلية - فى صياغة برنامج الحزب الوطنى (٢) • ورغم وصف البعض لهذا البرنامج بالتخلف (٣) ، الا أنه - رغم ذلك - يعكس تيارا اصلاحيا معتدلا جمع بين قادة الفكر والاعيان والأتراك وبين التنظيم العسكرى برئاسة أحمد عرابى ، ولكن يبدو أن وقفة ٩ سبتمبر الشهيرة بميدان عابدين قد كشفت عن الروح الثورية لدى عرابى ، والتي أصابت بعض المعتدلين من الحزب الوطنى بالهلع والخوف ، ولا سيما وأن عرابيا كانت لديه أفكاره الخاصة التى كانت تعكس وضعه الطبقي ، وهو الأمر الذى خلق فيما بعد وضعاً غير متوازن بين عرابى وغيره من أعضاء الحزب الوطنى من ذوى الاصول الطبقيّة المتميزة ، الى الدرجة التى ذهب فيها عرابى الى القول بأن الجيش سوف يظل يساند جماعة الاعيان طالما يسيرون فى الطريق الصحيح •• ولكن - حسبما يقول عرابى - سيوف الجيش ستظل باستمرار قادرة على ان تقوم اى أعوجاج فى سلوكهم (٤) اذن لقد ظلت أحد أسرار مقومات الزعامة العرباوية تكمن فى قدرته على

* هو حزب انشاء جمال الدين الافغانى او جماعة انشاءها الرجل حبا فى مصر وأمالا فى الرقى بما وتحريرها من ظلم الحاكم وجبروته • وهو بطبيعة الحال غير حزب مصر الفتاة الذى انشاءه الاستاذ أحمد حسن اطلال الله بقاء •

(١) رفعت السعيد ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٤ •

(٢) يتكون برنامج الحزب الوطنى من ستة مبادئ • انظر تفاصيلها فى عبد الرحمن

الرافعى ، الثورة العرباوية والاحتلال الاتجليزى ص ١٤٤ وما بعد هذه الصفحة •

(٣) رفعت السعيد ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ •

(٤) انظر رفعت السعيد ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ •

مواجهة الحكام وابرار وضعيته كفلاح مصرى أمام غطرسه الاعيان وصلف
 الاتراك وهنا يكمن السر فى هذا التأييد الجماهيرى - فضلا عن تأييد رفقاءه فى
 الجيش - له الذى أضحي بالنسبة (رمزا) لمناهضة السلطة وجبروت
 الاتراك وصلف الشراكسة .

فلا افكار اذن لزعامة الرجل ، ولكنها زعامة محدودة بظروف عصره ،
 وهى زعامة تستمد مقوماتها من وضعها كصفوة عسكرية فقط ، وانما من المؤكد
 أن 'الانتماء الطبقي لعرايى والخلفية الاجتماعية القروية له وظهوره فى ظل
 ظروف أو مواضع سياسية واجتماعية معينة التى أضافت الى أبعاده
 الذاتية الكارزمية أبعادا أخرى موضوعية ساعدت على صياغة البناء الزعامى
 للشخصية العرابية ، ومن ثم قدر لأحمد عرابى أن يلعب هذا الدور الخطير فى
 مسيرة المجتمع المصرى ، ورغم عثالب الرجل من نقص الدراية وضآلة الخبرة
 ومحدودية ثقافته وولعه بالسلطة وافتقاره الى رؤية أو ايديولوجية متكاملة -
 وهو ما يقلل كثيرا من سماته الزعامية - الا أنه سيبطل أبدا رمزا حيا لثورية
 الانسان المصرى فى بساطته وعفويته ، ثم أنه سيبقى دائما أحد الصعوبات
 المصرية المتميزة التى جمعت بين ملامح الالهامية والحس الثورى والحماس
 الوطنى المصرى الصادق ، والتى استطاعت بذكاء أن تتجاوز حدود انتمائها
 الصفوى العسكرى وتصبح ظاهرة سياسية شعبية جمعت بين التميز
 بصورته الذاتية والجماهيرية والشعبية .

oboi.kandi.com

المبحث الثالث

مصطفى كامل : بين العشق الرومانسي لصر

ومقومات الصفوة السياسية المثقفة

obeikandi.com

يمثل مصطفى كامل جيل ما بعد الثورة العربية(*) ، وهو الجيل الذى أراد أن يتجاوز كل مظاهر السأم والكآبة والاحباط التى تولدت كنتيجة لفشل الثورة العربية وخيبة الأمل التى حطمت معنويات الشعب المصرى ، فكان هذا الجيل بحق صحوه ويقظة نبهت العقول الى حقيقة الوضع الذى ترددت فيه مصر ، وهو الوضع الذى ساهم فى صياغته المستعمر الانجليزى والحكم الاوتوقراطى المتمثل فى الخديوى وحاشيته ، فضلا عن حالة اللامبالاة والقنوط التى أصابت الشعب المصرى .

وهذا الجيل - جيل اليقظة والوعى - هو ذلك الجيل الذى نال حظا وافرا من العلم والثقافة ، وهو الجيل الذى بشر بتخلق الزعامات السياسية العلمانية (غير الدينية وغير العسكرية) المثقفة جنبا الى جنب مع الزعامات الفكرية التى مثلها الشيخ محمد عبده واحمد لطفى السيد والشيخ رشيد رضا ، ثم بعد ذلك - وبفترة غير يسيرة - محمد حسين هيكل والشيخ على عبد الرازق والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وطه حسين والعقاد والمازنى وأمين الرافعى وسلامه موسى . الخ .

والملاحظ أن زعامات تلك الحقبة والتى تميزت بحسها الثقافى وبقدرتها على استيعاب خبرات الماضى ، فضلا عن حسها الوطنى الثورى ، قد استطاعت أن تجمع بمهارة بين القدرة على القيادة السياسية الجماهيرية وامكانية طرح رؤية أو ايديولوجية شبه متكاملة تجسد تلك الزعامة أو القيادة وتحدد مسارها ، فكانت بمثابة الفلسفة التى دارت حولها تلك الزعامات ،

(*) انظر قصة حياة مصطفى كامل وكفاحه الوطنى فى : عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعت النهضة الوطنية ، كتاب الهلال ، نوفمبر ١٩٥٢ . وانظر كذلك : فتحى رضوان ، مصطفى كامل ، سلسلة اقرا (٣٩٠) ، دار المعارف ، القاهرة ، ديسمبر ١٩٧٤ . وايضا فتحى رضوان ، مصطفى كامل رائدا وطنيا فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ص ١٣ - ٤٦ .

وهو أمر يتسبى وطبيعة الوضعية الفكرية والثقافية لجيل ما بعد الثورة العربية ، والذي يعد مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد من أبرز شخصياته .

ولم يكن البعد الثقافى والفكرى هو المظهر الوحيد الذى ميز زعامات ما بعد الثورة العربية ، اذ أن هناك بعدا آخر كانت له فاعليته ودوره فى تحديد معالم الزعامة السياسية، وأعنى به نشأة الأحزاب السياسية المصرية، فكان لنشأة حزب الأمة وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ثم الحزب الوطنى أثره لا فى صياغة هوية الزعامة السياسية فى مصر فحسب ، وانما أيضا فى طبيعة المسار الذى اتخذه الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الانجليزى وضد أوتوقراطية السلطة الحاكمة .

ومصطفى كامل بحكم تكوينه الفكرى والثقافى (*) كان ينتمى الى الصفوة السياسية المثقفة Intellectual Political Elite ، ولأول مرة فى تاريخ مصر يتزعم الحركة السياسية الوطنية زعيم ينتمى الى الصفوة العلمانية المثقفة ، وهذا ما يميز مصطفى كامل عن الزعامات المصرية السابقة كعمر مكرم باعتباره صفوة دينية مستنيرة ، أو كأحمد عرابى باعتباره أحد للصفوات العسكرية الوطنية المتقظة .

(٢)

ولقد ساهمت الثقافة القانونية والعلمانية الأوروبية (خاصة الثقافة الفرنسية) فضلا عن الثقافة الاسلامية فى صياغة البناء الفكرى لمصطفى كامل وخدمت طرازا عصريا من الزعامات السياسية الثورية التى جمعت بين الحماس الثورى والحس الوطنى الناضج وبين الطرح الفكرى بأبعاده السياسية والاجتماعية وهو ما كنا نفتقده فى الزعامات السابقة عليه حيث طفى الحماس الثورى بحيث لم يدع للبعد الفكرى - ان وجد - فرصة للظهور والتألق .

(*) انظر فى مظاهر الفكر الثقافى لمصطفى كامل : محمد عمارة ، مصطفى كامل والجامعة الاسلامية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ص ١٠٥ - ١٥٣ . والذي يؤكد فيه الكاتب أن فكر مصطفى كامل كان يدور فى اطار العقيدة الوطنية المصرية والدليل على ذلك تقييمه لتجربة محمد على الاستقلالية ودور مصر التاريخى وعقيدة الوطنية المصرية وموقفه من قضيتى الوطنية والدين ، والوحدة الوطنية وموقفه منها ككثرة ومفهوم ، فضلا عن موقفه من فكرة التعصب القومى ، ثم موقفه من الحضارة الغربية .

فكان مصطفى كامل كصفوة واعدة Promising Elite تعلقت بها آمال الشعب المصرى ، وكان بمثابة الروح التى سرت فى جسد هذا الشعب المكلول ، فبعثت فيه الأمل بعد أن تحطم بهزيمة العربيين وفشل الثورة وتشريد زعمائها •

وتكمن العبقرية الزعامية لدى مصطفى كامل فيما أتصور من خلال

المظاهر الآتية :

١ - ادراكه الواعى لمأساة الشعب المصرى والتى جسدها المستعمر الانجليزى وأودت اقطاعية السلطة الحاكمة •

٢ - وعيه المستنير لأسباب فشل التجارب المصرية الثورية ، لاسيما التجربة العربية ، وكانت للقاءاته العديدة بفيلسوف الثورة العربية وخطيبها الأثير ومحرك وجدان الشعب عبد الله النديم ، الأثر العميق فى فهم أبعاد هذه الثورة وأسرار فشلها •

٣ - قدرته على تقديم فكر ثورى جديد فى ملامحه ، عميق فى أبعاده ، رومانسى فى طرحه ، يجمع بين الحماس الوطنى من جانب والفكر السياسى محدد الملامح ، متميز الهوية من جانب آخر •

٤ - رغم بعض هنائه كثقته فى الخديو عباس حلمى الثانى أو اعتماده على فرنسا ودعوته الى الخلافة الاسلامية فى ظل السلطنة العثمانية(*) ، الا انه ظل مصدر ثقة الشعب ، ومصدر توتر وقلق لكل من الحاكم الشرعى والمستعمر الاجنبى • ويكفيها أن نشير الى دوره العظيم أثر حادثة دنشواى وما ترتب عليها من اقضاء اللورد كرومر ، وهو الاقصاء الذى اعتبر فى حينه أحد الانتصارات الكبرى للحركة الوطنية(١) •

٥ - رغم انتماء مصطفى كامل الى الصفوة المصرية المثقفة الا ان

(١) انظر عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ١١٢ •

(*) فى هذا المعنى يكتب مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم « انك تعلمين خطي مع مع تركيا وما اراه واجبا نحوها ... وقد اعترف كثير من اصديقائنا اليونانيين بأنه من السياسة للوطنية لمصر ان تكون مع تركيا ... فمن الامور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة لخلافه » نقلا عن : محمد محمود السروجى ، الفكر السياسى لمصطفى كامل ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥٤ •

حركته الوطنية لم تكن حركة وطنية فئوية ، بل كانت حركة ذات أبعاد شعبية ، وكيف لا ومصطفى كامل - على نحو ما يذهب الخديو عباس حلمي الثاني في مذكراته - كان « ٠٠٠ محبى الوطنية المصرية ، ورسول تلك الفكرة التي كانت قد خذت في مهدها ولكنها ظلت تسعى الى الامام ، وقد كسب لعقيده ولحزبه أغلبية الموظفين ، وأعيانا ، ومثقفين ، واجماع الطلبة والعمال » (١) .

٦ - قدرته على المزج بين حبه الرومانسى لمصر وانطلاقاته غير المحدودة في الداخل وفي الخارج للدعاية للمسألة المصرية والتنديد بالمستعمر الانجليزى .

٧ - ما تميز به من عفة وتواضع وبساطة ، فرغم موهبته الفذة خطيب وحضوره المؤثر والتفاف الجماهير حوله كان أميل الى البساطة ، عفا ، طاهراً ، وهو ما جعل الشعب يفتن به ، لاسيما وأنه رغم ذقافته الأوروبية (الفرنسية على وجه الخصوص) الا أن « ٠٠٠ أساس تعليمه لم يكن عصرياً مفرطاً في عصريته ، بل لعل أفكاره كانت أقرب الى التقليد الشرقى بما يعتقد أكثر الناس ٠٠ وكان قد جرد وطنيته من كل رداء دينى ، ولكنه ظل متديناً ومتعلقاً بروح القرآن ٠٠ ومع أنه تربى في أوروبا ، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة ولكنه لا يعتبرها غاية في حد ذاتها » (٢) .

(٣)

ومن الظواهر التي تستحق التأمل بالنسبة لشخصية مصطفى كامل انه كان من الزعماء السياسيين المصريين . بل يكاد يكون أولهم وآخرهم الذين قدموا ما يشبه (النظرية) فيما يتعلق بقضايا السياسة والحكم ، وهو ما تكشف عنه كتاباته ومقالاته العديدة في جريدة اللواء أو في غيرها من الصحف الأخرى المصرية والأجنبية (الفرنسية على وجه الخصوص) (٣) ،

(١) نقلا عن عبد الرحمن الرافعى ، نفس المرجع ، ص ١٥٢ .

(٢) من مذكرات الخديو عباس حلمي الثاني ، نقلا عن عبد الرحمن الرافعى ، نفس

المرجع ، ص ١٥٦ .

(٣) انظر في علاقة مصطفى كامل بفرنسا في : صلاح العقاد ، مصطفى كامل وفرنسا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ص

فضلا عن كتاباته التى صدرت فى صورة كتب مؤلفة ، والتى يذكر منها
 درنارد لويس Lewis كتاب الشمس المشرقة The Rising Sun
 والذى قدم فيه اليابان كنموذج لدولة شرقية استطاعت أن تجدد نفسها
 بنفسها (١) .

فمصطفى كامل اذن كان يعد من المنظرين السياسيين بالرؤية المصرية
 الخاصة (**) وهو الأمر الذى يضيف الى مزاياه مزية أخرى هى أن زعامته
 لم تكن زعامة جوفاء أمتزجت فيها سماته الذاتية وموهبته القيادية الخاصة
 بطاقمه الفكرى وبمنظومة نظرية تعكس فلسفته فى السياسة والحكم .

ولقد تبيت رؤيته المصرية فى معالجته لقضايا السياسة والحكم ، وهى
 رؤية تعكس حبه ووله بمصر ، فى كل ما طرحه من أفكار وآمن به من مبادئ
 دور كلها فى تلك (حب مصر) وعشقها الى الدرجة التى كان يرى فيها أن كل
 من يعيش فى مصر وهو غير مصرى يعتبر من الدخلاء وهو ما حدث مثلا بالنسبة
 للسوريين الذين كانوا يعيشون فى مصر ، وهى الفكرة التى آمن بها من قبل
 عبد الله النديم (٢) .

ولكن قد يفهم من هذا العشق لمصر والتدله بها أنه كان يعنى تعصبا ،
 إذ أنه فى الوقت الذى كان ينظر فيه الى غير المصريين هذه النظرة ، كان
 يعيب على العربيين أنهم خلقوا مظهرا من مظاهر العداء العنصرى Ethnic
 hostility عندما ميزوا بين المصريين وغيرهم من الأتراك والشراكسة ،
 حيث كان ينبغى - حسبما يرى مصطفى كامل - أن ينظر اليهم باعتبارهم
 احد العناصر المشكلة للأمة المصرية (٣) .

(١) Lewis, Bernard, The Middle East and West, Weidenfeld
 and Nicolson, London, 1963, P. 55.

(**) رغم هذه الرؤية المصرية الا ان فكره السياسى والحزبى قد تأثر الى حد كبير
 بالفوى السياسية الفرنسية التى كان يتعامل معها وهى القوى الحزبية وهو الأمر الذى يؤكد
 دور الفكر السياسى الحزبى الفرنسية فى صياغة الفكر السياسى والحزبى لمصطفى كامل رغم
 نجاحه فى تقديم فكر سياسى مصرى الروح فى نهاية الامر . انظر يونان لبيب رزق ، مصطفى
 كامل وتأسيس الحزب الوطنى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ،
 القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨٠ .

Lewis, Bernard, Ibid, P. 18.
 ib d, P. 81.

(٢)

(٣)

فلم تكن نظرفته اذن نظرة يغلب عليها التعصب ، بل لقد كان من أكثر الصفوات استنكارا للفكر المتعصب ، ومن أكثرهم استهجانا لأى مظهر من مظاهر التعصب بين المسلمين والمسيحيين في مصر ، اذ كانت مصر (المتحدة) أحد أحلامه الكبرى والتي ظهرت بصورة جلية برنامجه الثورى (١) ، رغم دعوته الى الجامعة الاسلامية التى قد يفهم منها تعصبا دينيا معيناً ، الا أن الأمر لم يكن كذلك ، اذ أنه كان يتصور أنه أحد صور (الخلاص) من (أزمة) الاستعمار الأجنبى ، فى الوقت الذى أدان فيه فكرة القومية العربية كأحد المؤامرات البريطانية فى حينها حسبما يشير برنارد لويس (٢) .

(٤)

ولقد تطور الفكر الزعامى لمصطفى كامل وتجسد بصورة محددة فى البرنامج الذى تأسس وفقاً له الحزب الوطنى (٣) ، وهو البرنامج الذى تمت صياغته فى عشرة مبادئ « . . . لم تكن أكثر من آراء التى طالما أبداه مصطفى كامل قبل تأسيس الحزب » (٤) .

ولقد كان تأسيس الحزب الوطنى بصورته المتكاملة أحد القفزات الهامة التى وثبتت بالحركة الوطنية خطوات كانت لها انعكاساتها الايجابية على المسار الذى اتخذته الكفاح الوطنى فيما بعد ، كما أنه يعد فى الآن نفسه أحد مظاهر الوعى السياسى الناضج للزعيم مصطفى كامل الذى أدرك أهمية التنظيم السياسى (الذى تمثل فى الحزب) فى استمرارية الكفاح الوطنى وفى اضافة أبعاد جديدة لضمون هذا الكفاح ، تحقق له قدراً من الثبات والاصرار والقوة .

ولعل حديثنا عن الحزب الوطنى يقودنا بالضرورة الى الحديث عن

(١) El Good, P. G., Egypt, Arrow Smith, Bristol, 1935, P. 104.

Op. Cit., P. 85.

(٢)

(٣) انظر تفاصيل هذا البرنامج فى : يونان لبيب رزق ، الاحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، مايو ١٩٧٧ . ويقول مصطفى كامل فى حديث مع الصحفى الأمريكى جولدنيك فى مارس ١٨٩٧ شارحاً برنامجه ودعوته فى الجلاء والاستقلال « اننا نبغى نجاحنا فى عملنا على أمرين : الأول خارجى ، وهو انتهاز للحوادث الدولية والثانى داخلى وهو نشر العلوم والمعارف بين اخواننا المصريين والتشهير باخطاء لاحتلال الانجليزى » : انظر محمد محمود السروجى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .

(٤) يونان لبيب رزق ، نفس المرجع ، ص ٢٤ .

علاقة مصطفى كامل بالخدوي عباس حلمي الثاني . فمهما قيل عن ثقة مصطفى كامل في الخديو عباس و صداقته له ، فإنه من المؤكد - حسبما يشير الشيخ رشيد رضا عن توفيق بك العظم ، صديق مصطفى كامل ومحمد فريد - أن مصطفى كامل كان يتخذ من الخديو وسيلة « . . لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال ، فإن ظفرت البلاد بجلاء الجيش الانكليزي عنها فإن الحزب الوطني يؤسس لها حكومة لا يكون للخدوي ولا لأمثاله أدنى حظ فيها . » ويؤكد هذا الاتجاه محادثة دارت بين مصطفى كامل وبلنت في ديسمبر ١٩٠٦ ، ندد فيها مصطفى بالخدوي وبالفرع الذي ينتمي اليه من الأسرة الحاكمة ، قائلا أنهم جميعا لا يساؤون شيئا ويجب ابعادهم عن وراثة العرش» (١) .

فواضح اذن من الحزب الوطني كتجسيد للحركة الوطنية كان يهدف - رغم ما قد يبدو للبعض انه عكس ذلك - الى انشاء حكومة وطنية خالصة بعيدة كل البعد عن نفوذ الخديوية وسيطرتها الى درجة التفكير في اقصاء الخديو والقضاء على أسطورة وراثة العرش كما تحدث بذلك مصطفى كامل الى بلنت .

ولعل هذا يتسق مع ما ذهب اليه جمال المسدي من أن « . . قيادة الحركة الوطنية حينئذ متمثلة في مصطفى كامل كانت حريصة على ألا تقع تحت سيطرة عباس حلمي ، وأن يكون التعاون بينهما في حدود الهدف المشترك وهو مقاومة الاحتلال ، لتحفظ باستقلال الحركة الوطنية عن الخديو» (٢) .

وتتكشف هذه الروح التجديدية في نظام الحكم فيما بلورته المبادئ العشر لبرنامج الحزب الوطني (٣) من اتجاهات واضحة نحو الحكم

(١) محمد جمال الدين المسدي ، الاحتلال والحركة الوطنية في مصر في أوائل القرن العشرين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني والعشرون ، ١٩٧٥ ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) محمد جمال الدين المسدي ، نفس المرجع ، ص ٨٤ .

(٣) يذهب على فهمي كامل في ترجمته عن حياة شقيقه بان الصحافة الاوربية والفرنسية صورة خاصة هي أول من تحدثت عن حزب وطني في مصر وعن مصطفى كامل باعتباره زعيما لهذا الحزب وكان ذلك في أعقاب خطبة القاها مصطفى في باريس بمناسبة عيد جلوس السلطان في ٣١ مارس ١٨٩٥ شن فيها هجمة عنيفة على الاحتلال البريطاني . انظر : يونان لبيب رزق ، مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطني ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ص ٨٠ .

الديمقراطي ، حيث يشير المبدأ الثانى الى « ايجاد حكومة دستورية فى البلاد حيث تكون السيادة للأمة وتكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تمام السلطة » (١) .

ورغم أن الدعوة الى الدستور والى الحكم النيابى جاء فى المرتبة الثانية من برنامج الحزب الوطنى بعكس برنامج حزب الأمة الذى وضع الدستور ومبدأ التعليم والمشاركة مع الحكومة فى وضع القوانين فى المرتبة الأولى (٢) ، الا أنه يكشف عن وعى سياسى بقيمة الدستور والحياة النيابية وأهميتها للمجتمع ، كما أنه يكشف فى الآن نفسه عن نية صادقة لتحقيق قدر كبير من التحديث السياسى Political Modernization ، وهى التى كانت تمثل - الى جانب قضية الاستقلال - أحد محاور التفكير السياسى لمصطفى كامل .

ومن المؤكد ان قضيتى الاستقلال والدستور قد شغلت الحزب الوطنى طوال سنين كفاحه حتى بعد رحيل زعيمه مصطفى كامل وانتخاب محمد فريد رفيقه فى النضال الوطنى رئيسا للحزب من بعده (٣) .

(٥)

اذن لقد مثل مصطفى كامل احد القوى السياسية المستنيرة الواعية وأحد الصفوات المثقفة التى قدر لها أن تتزعم الحركة الوطنية مدعمة بملكات النباهية وقدرات كازمية صيغت من خلالها - الى جانب الرؤية الفكرية - الشخصية الزمامية له .

ومن المؤكد أن ظروف المجتمع المصرى سياسيا واجتماعيا ونمط الحكم السائد - فضلا عن المستعمر الانجليزى - قد جسدت هذه الزعامة المثقفة وعملت على تألقها . ولاشك أيضا أن الانتماء الطبقي الاجتماعى لمصطفى كامل

(١) يونان لبيب رزق ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) انظر : يونان لبيب رزق ، نفس المرجع ، ١٩٦ .

(٣) انظر دور محمد فريد فى الحركة الوطنية فى : أحمد شوقى ، محمد فريد ، دار اللواء للنشر ، القاهرة . وانظر مذكرات محمد فريد فى المنفى التى صدرت حديثا تحت عنوان مذكرات بعد الهجرة (١٩٠٤ - ١٩١٩) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ . وانظر كذلك ، زكريا سليمان بيومى ، الحزب الوطنى ١٩١٢ - ١٩٥٣ (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

باعتباره أحد أعضاء الطبقة الوسطى المصرية(*) وتمثله لنفسية الشعب ، ومن ثم التفاف الشعب حوله ، فضلا عن حداثة سنه مقارنة بعبقريته الزعامية ، قد أضاف الكثير الى أبعاد شخصيته الزعامية النادرة .

ومن الظواهر اللافتة بالنسبة للشخصية الزعامية لمصطفى كامل ، أنه رغم تمثيله للصفوة المثقفة في المجتمع المصرى ، الا أنه استطاع - بقدراته الخاصة - أن يتجاوز حدود طبقته المثقفة وأن يتفاعل مع جماهير الشعب المصرى ، أو أن يجعل الجماهير تتفاعل معه بكافة طبقاتها الاجتماعية وبمختلف انتماءاتها الثقافية ، ومن ثم أضحى أحد رموز الكفاح الوطنى على مدى تاريخ المجتمع المصرى .

وقد تكون من الظواهر المؤكدة للشخصية الزعامية لمصطفى كامل هو انه لم يتطلع أبدا الى السلطة بمعناها الرسمى أو الشرعى ، ولم تكن له أهواء خاصة فى السيطرة أو الحكم ، لأنه كان يملك من السلطة والسيطرة والقوة ما فاق كل وضع سلطوى رسمى ، وتلك هى الزعامة الحقيقية فى يقينى .

وعزوف الزعامات المصرية منذ الحكم المملوكى يكاد أن يكون أمرا بديهيا ، فلقد ألف المصريون من قبل استبداد المماليك بالولاية وعزلهم فكان زعيمهم (شيخ البلد) يتوجه اليه فى مقره بالقلعة ويطوى البساط من تحته اإذانا بعزله وما على السلطان الا أن يعين بديله .. فلم يكن عزوف الزعامة المصرية عن تولي الحكم بنفسها بعد أن اضطلعت دون غيرها بعبء الكفاح القومى ايمانا منها بعدم القدرة عليه أو أنها ليست كفئا له ، بل لأنها كانت ترى أن حقها هو دون الولاية وان عداها الى الاختيار ، وظل هذا الرأى قابعا فى أذهار المصريين حتى الثورة العربائية(١) حين فكر عرابى فى خلع الخديوى توفيق ، وحين قدر له بعد ذلك أن يكون وزيرا للحربية فى وزارة البارودى .

أما مصطفى كامل فلقد كان زاهدا فى السلطة ، واعيا بأن دوره ما كان ينبغى أن يكون دور الحاكم ، فما هكذا تخدم الأمة ، وما كان هذا هدف

(١) انظر : حسين فوزى النجار ، أحمد لطفى السيد : استاذ الجيل ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ص ١١ - ١٢ .
(*) نشأ مصطفى كامل فى حى الخليفة بالقلعة فى أسرة متوسطة . وحى الخليفة من الاحياء الشعبية المصرية العريقة .
(م ٨ - الزعامة السياسية)

الزعامة ، ولعل ما وقع فيه عرابي قد كرره سعد زغلول - على اختلاف ظروف كل منهما - حين قبل تشكيل أول وزارة - وزارة الشعب - جاءت بنسأ على الانتخابات التي أجريت وفقا لدستور عام ١٩٢٣ ، وهذا ما سوف يكشف عنه المبحث الثالث من هذا الفصل عند تناول الشخصية الزعامية لسعد زغلول .

وخلاصة القول : ان مصطفى كامل ، كما يرى فتحي رضوان كان رجل خيال وفكر ، بقدر ما كان رجل تنفيذ وعمل . فمصطفى كامل كان قائدا موهوبا للشخصيات الكبيرة ولجموع الجماهير . ولم يكن ممكنا أن توجد حركة وطنية مصرية في أعقاب كارثة الاحتلال البريطاني بغير شخصية يجمع هذه الصفات التي قل أن تتلاقى وتجتمع في انسان واحد ، ولأن مصطفى كامل كان هذا الزعيم ، فقد استطاع أن يقوم بمهمة الرائد (١) . وهكذا كانت زعامة مصطفى كامل تلك الزعامة التي سمت بالوطنية المصرية ، ووصلت بها الى قمة الفكر الشامل فأضحت اتجاهها سياسيا ومنهجيا خلقيا وبرنامجا للإصلاح والتقدم وأسلوبا أو صيغة للكفاح ودعوة متجددة دائما للبناء والتجديد ، فكانت دعوته الدائمة في أن يوقظ في مصر للهرمة ، مصر الفتاة (٢) .

(٦)

ثم تبقى قضية أخرى ، قد نكون لمحا لها عند الحديث عن برنامج الحزب الوطني أو عند الإشارة الى فكر مصطفى كامل ، وأعنى بها الرؤية الاجتماعية لديه . والواقع أننا نتفق كثيرا مع صلاح عيسى في اشارته الى أن « الظاهرة الواضحة في حلقات الثورة الوطنية المصرية ذات الأفق البرجوازي (*) » ، هو ذلك الانفصال النسبي في رؤيتها بين قضية التحرر السياسي وقضية الإصلاح الاجتماعي» (٣) .

(١) انظر فتحي رضوان ، مصطفى كامل رائدا وطنيا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

(٢) انظر فتحي رضوان ، نفس المرجع ، ص ١٧ ، ص ٤٦ .

(٣) رغم عدم برجوازية مصطفى كامل وسعد زغلول ومن قبلهما أحمد عرابي بالتصور الطبقي الكلاسيكي .

للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ .

(٣) صلاح عيسى، مصطفى كامل وقضايا الإصلاح الاجتماعي ، الجمعية المصرية

للدراسات التاريخية (ندوة مصطفى كامل) ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ .

وإل هذا يعنى افتقار الثورة الوطنية المصرية ومن ثم الزعامات السياسية المصرية الى الرؤية الشمولية رغم ما قد يتصوره البعض من أن ورود ذكر بعض القضايا الاجتماعية في برامج بعض الأحزاب السياسية المصرية (١) ما يكتفى للتدليل على توفر هذه الرؤية الشمولية لدى بعض القيادات السياسية المصرية . ولكن من المؤكد أن الأمر ليس مجرد ذكر القضية الاجتماعية أو عدم ذكرها بقدر ما هو مرتبط بالنظرية أو الفكر الذى يحكم النظرة الى هذه النوعية من القضايا .

ومصطفى كامل رغم حسه الاجتماعى ووصفه الدائم لمصر في كتاباته ورسائله المختلفة جوليت آدم بأنها « .. وطن شقى وتعس الى آخره درجات التعاسة» (٢) وفهمه لطبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية ووضع البناء الاجتماعى المصرى ، الا أنه لم يكن صاحب فكر اجتماعى متكامل ، ورؤية اجتماعية محددة الملامح .

ومع ذلك فان احساسه بالتمايزات الاجتماعية والطبقية كان على قدر كبير من الوعى والنضج فالأغنياء على حد قوله « .. ليسوا في سعة من العيش وراحة البال الا بالفقراء ، فصاحب المزرعة لا يأخذ من أرضه ذهباً الا بفأس الفقير وقوة ساعده ، ومالنا نذهب بعيدا وهذه السراى العالية البنيان المشيدة الأركان لم تقم الا بالفقراء ، هم قوة الأمة ، وساعدها العامل ، يحملون الأغنياء على أكتافهم فان أدخلوا بهم يوما استقطوهم الى أسفل سافلين» (٣) .

ولا شك أن الرؤية السابقة تكشف عن نزعة راديكالية في الفكر الاجتماعى على نحو ما بذهب صلاح عيسى ، الا أنها لم تترجم الى فعل راديكالى ذى تأثير أو فاعلية على نحو ما فعل النديم في تحريضه للفلاح أن يشق بطن ظالمه بالفأس (٤) . ويظل مصطفى كامل على حسه الاجتماعى هذا ، معلنا عنه في كل أحاديثه وخطبه المختلفة ، فيؤكد في أحد خطبه على أن هناك

-
- (١) انظر برامج الاحزاب السياسية في يونان لبيب رزق ، الاحزاب المصرية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ١٩٧٦ .
 (٢) صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ .
 (٣) نقلا عن صلاح عيسى ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
 (٤) انظر : صلاح عيسى ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ .

« أفرادا فقراء من آخر طبقات الهيئة الاجتماعية قاموا في بلادهم بأكبر الأعمال وأشرفها » (١) .

ولكن - وللأسف - لم تقتزن هذه الرؤية ببرنامج اجتماعي محدد اجرائيا ، ولكن كان برنامجا نظريا ذا أمانى انسانية « أن يكون المصرى انسانا بأسمى معانى الكلمة » .. « فأسمى عمل نقوم به هو انهض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم ، فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بان الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته وسعادته » (٢) .

ثم تتوالى الأمانى الاجتماعية لدى مصطفى كامل ، من دعوته لاعادة النظر في تعدد الزوجات وقبول مبدأ الوحدةانية في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وحرصه على تنعيم المرأة بشرط الالتزام بالحجاب والحذر من العادات الأوربية وتاكيدته على ضرورة تبعية المرأة للرجل ... الخ .

ويبدو أن أمانبه الاجتماعية كانت نتاجا لفكرة الشرقى الاسلامى وتمثله الجيد وفهمه لطبيعة الحضارة الاوربية بمحاسنها ومساوئها ، ولكن هذه الأمانى لم ترق الى مستوى الرؤية المتكاملة ذات البرنامج المحدد ، وقد يرجع ذلك الى طغيان القضية المصرية الاولى وهى قضية الاستقلال على ما عداها من تضايها أخرى ، ولكن القدر لم يمهل الزعيم الشباب لكى يكشف لنا عن رؤيته الاجتماعية بصورة أجرائية متكاملة ، ويكون قد قدر لنا ان نتعرف على نموذج للزعامة السياسية المصرية تكاملت فيها الرؤيتان السياسية والاجتماعية .

(٢) انظر : صلاح عيسى ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(١) انظر : صلاح عيسى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ .

المبحث الرابع

سعد زغلول

موهبة جسدها ظروف المجتمع

obeikandi.com

ما اختلف مؤرخو الفكر السياسى المصرى ، وراصدو الحركة الوطنية المصرية فى أمر قدر اختلافهم على تقويم الدور الزعامى لعلمين من أعلام الكفاح الوطنى المصرى وهما أحمد عرابى وسعد زغلول •

وسعد زغلول هو أحد أساطين الحركة الوطنية المصرية وأحد الزعامات السياسية التى تجاوز تأثيرها جيلها والأجيال التى تلتها ، وهو ذلك الشيخ الهمم الذى وصفه أعداؤه الانجليز بالصلابة والعناد ، والذى وصفه مؤيدوه - وهم فى الواقع غالبية الشعب المصرى - بأنه نبى الوطنية ، والذى اتهمه معارضوه بالدكتاتورية والتفريط فى قضية الاستقلال ، والذى وصفته أحد وثائق ثورة برليو ١٩٥٢ بأنه من راكبى موجة ثورة عام ١٩١٩ ، والذى اتهمه - أخيرا - أحد المغالين بأنه كان من أكثر شخصيات المجتمع المصرى تعاوناً مع الانجليز •

وعير خاف علينا أن لهذه الاختلافات القائمة بين المؤرخين فيما يتعلق بتقويم الشخصية الزعامية لسعد زغلول ودوره فى مسيرة الكفاح الوطنى ، أبعادها الحزبية والايديولوجية ، فضلا عن الأهواء الشخصية والسلطوية فى محاولة طمس المقومات الزعامية والملاحم القيادية من شخصية سعد ، وهو أمر لم تسلم منه غالبية الزعامات السياسية المصرية ، لا سيما إذا ما كانت هذه الزعامات قد نالت من رضى الشعب وتأييده ما قد يصور - لبعض السلطات، الحاكمة - أنه قد ينال من هيبتها ويهز سلطانها •

والواقع أننا لسنا بمعرض للتأريخ للزعيم سعد زغلول من حيث نشأته وانتمائه الاجتماعى والطبقى ومصادر ثقافته وطبيعة الشخصيات التى تأثر بها ، لأن ما كتب عنه من مؤلفات ودراسات من الوفرة (١) بحيث تشكل

(١) انظر فى السيرة الذاتية لسعد زغلول : عباس محمود العقاد ، سعد زغلول ، سيرة رتحية ، دار الشروق • ومصطفى أمين ، من واحد لعشرة ، المكتب المصرى الحديث ، ثم عبد الرحمن الرافعى ، ثورة الشعب : ثورة علم ١٩١٩ (ثلاثة أجزاء) • وأيضا حسين مؤنس ، دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، سلسلة اقرأ (٤١٨) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ •

أماننا نحن الباحثين في علم الاجتماع السياسي عقبة تتعلق بمنهجية التناول وبأسلوب العرض والتحليل ، كما أنها تثير أماننا تساؤلا هاما هو أين نحن وسعد ؟ بمعنى كيف نبدأ ؟ ومن أين نبدأ ؟ وذبح أمام هذه الشخصية الفريدة ؟ هل نتحدث عن سعد صاحب الموهبة الكازمية الساحرة ؟ وهل نشير اليه باعتباره قوة لأحد صفوات المجتمع المثقفة ؟ هل نتناوله باعتباره موهبة جسدها ظروف موضوعية ؟ وهل نحلل أبعاد شخصيته باعتباره زعامة خلقتها ثورة ؟ .

ثم كيف، لنا أن ندنو من هذه الزعامة العبقريّة ، وللعبقري - على نحو ما يذهب محمد السوادى - نظرة شمول تتخطى الجزئيات وسرا سلحته به العناية لأمر تعنيه من حيث يدريه أو لا يدريه ، نظرة شمول يخترق بها الحجب .. وسرا يرى على أضوائه الكاشفة ما لا يراه المتخصص بأجهزته الدقيقة ، أو ببحوثه العميقة .. سرا يخرج بالعبقري عن كل قاعدة علمية أرسنها الملاحظة وأيدتها التجربة « (١) » .

ورغم هذا الغموض الذى يحيطه السوادى بالعبقرية ، والتى ينظر إليها باعتباره أمرا لا تعليل له حيث لا نوافق على ذلك إيماننا منا بأنه لا عبقرية بلا تفسير ولا زعامة بلا تعليل ، فرغم هذا سوف نتناول سعدا ، تلك العبقرية الزعامية الفذة ، ذاهبين مع السوادى الى أن سعدا قد ولد عظيما وصنع من نفسه وصنعت منه الظروف عظيما « (٢) » . ولعل تصريح السوادى بأن لظروف قد لعبت دورا في صياغة الشخصية الزعامية لسعد ، ما يتناقض مع ما أشار اليه قبلنا من أن العبقرية لا تفسر لها .

== وكذلك راجع في سيرة الزعيم سعد زغلول ودوره القيادى في : مصطفى النحاس جبر ، مفكرات سعد زغلول ، روزاليوسف ، يونيو ١٩٧٣ وكذلك يونان لبيب رزق في دراستين : الاولى عن الاحزاب المصرية قبل الثورة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ١٩٧٥ . وايضا محمد حسين هيكل ، مفكرات في السياسة المصرية (ثلاثة أجزاء) ، دار المعارف ١٩٧٧ . وكذلك العدد رقم (٣) من الطليعة ، مارس ١٩٦٩ ، وهو عدد خاص عن ثورة ١٩١٩ . واخيرا عبده حسن الزيات ، سعد زغلول من أفضيته ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

(١) محمد السوادى ، لكيلا ننسى : أقطاب مصر بين ثورتين ، كتاب اليوم ، نوفمبر

١٩٧٦ ، ص ١١ .

(٢) محمد السوادى ، نفس المرجع ، ص ١٣ .

(٢)

وتتجسد عظمة المولد في مواهبه وقدراته وملكاته ، وهى سمات ما كان لها أن تظهر أو تتألق لولا تلك الظروف التى أحاطت به وبمجتمعه ، وهذا هو سر عبقرية سعد التى لا يمكن فهمها الا بتفسيرها فى ضوء السياق الاجتماعى والسياسى للمجتمع ، وقوة ظهرت بشائرها كقوة عنيدة صلبة منذ أن أيد العرابيين ، ومنذ أن وقف فى وجه دانلوب - وهو فى موقع الوزير - بصلاصة وقوة يناصر الحق ويزود عن المبادئ بغير خوف أو تردد (١) .

ويبدو أن نشأته كفلاح وتعليمه الأزهرى والعلمانى القانونى ووعيه بمتغيرات عصره واستيعابه الناضج لتاريخ مجتمعه وتأثره بالافغانى وتلمذته على يد الشيخ محمد عبده ، قد أضافت الى أبعاد شخصية عمقا آخر كشف عن (مصرية) عنيدة وروح ثورية واعية .

ومن المؤكد أن زعامة سعد قد تأخر تألقها أعواما عديدة ، الا أن روح الزعامة كانت كامنة فيه ، والتى كانت تظهر بين حين وآخر فى عديد من المواقف ، لاسيما فى مواقفه من السلطة الحاكمة وسلطة الاحتلال الانجليزى الحاكم الفعلى للمجتمع المصرى ، ولعل انتخابه كوكيل للجمعية التشريعية ثم توكيل الشعب له للمطالبة بالاستقلال والقفاف الشعب حوله وانفجار الثورة عام ١٩١٩ من دلائل الزعامة الكامنة التى كشفت عن ذاتها بصورة جلية فى قيادته للشعب وفى موقفه الصلب من مفاوضات الاستقلال ، وفى اكتساحه وحزبه - حزب الوفد - للانتخابات ثم تشكيله لأول وزارة وفقا للدستور عام ١٩٢٣ ، رغم تحفظنا على هذا الموقف (٢) .

فمن الجحود إذن أن ننكر على الرجل موهبته (٣) ومن الغفلة أيضا أن

(١) رغم ما يذهب اليه البعض من أن سعدا قبل اشتغاله بالحركة الوطنية ، كان صديقا للاحتلال صادق النية ، مخلص الراى وعاون الانجليز فى خطتهم وهو فى ذلك يسلك السبيل الذى سلكه من قبله محمد عبده ، (انظر : عبد الخالق محمد لاشين ، سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ، مكتبة التاريخ العربى الحديث ، دار المعارف ، سفة النشر غير مذكورة ، ص ٥٨ .

(٢) انظر دراسة عن حكومة سعد زغلول فى : عاطف احمد فؤاد ، الحرية والفكر السياسى المصرى ، ١٩٨٠ .

(٣) يذهب محمد كامل سليم فى وصف سعد زغلول الى انه « عظيم الهامة يعلو رأسه صلح ، جرى القلب ، لم يطرقة يأس ولا طلع ، رهيب الطلعة ، طويل القامة ، تشع بجانبه

يتوه دور الشعب في تألق هذه الموهبة . ومن غير العلمى الا نذكر أن لظروف المجتمع وطبيعة مط الحكم السائد الذى مال كثيرا نحو الاوتوقراطية ، فضلا عن وطاة الاحتلال الانجليزى ، بصماتها في صياغة الشخصية الزعامية لسعد زغلول ، وهو ما يؤكد ما ذهب اليه السير رايت ميلز Mills من أن الصفوة أو صفوة القوة - اذا ما نظرنا الى سعد باعتباره من الصفوات - ومنها الزعامة السياسية لا يمكن فهمها كموهبة خاصة الا في ضوء طبيعة البناء الاجتماعى بمتغيراته المختلفة .

واذا كنا قد أكدنا قبلا أنه لا زعامة سياسية حقيقية بلا فكر أو رؤية نظرية ، فمن المؤكد أن سعدا لم يكن زعيما بلا رؤية ، ولكنه على نحو ما يذهب طارق البشرى « . . لم يكن مفكرا صاحب نظرية ولا داعية سياسية . . ولكنه كان رجل دولة عملى المنزع يهتم بالقضايا التنفيذية ويعبر عن نفسه عن خلال المواقف التى تحيط به ويستجيب في هذه المواقف للسياق العام للأحداث والظروف » (١) .

(٣)

فدقة يقى أنه له يكن مفكرا بالمعنى الكلاسيكى أو صاحب نظرية أو اندمولوجية متكاملة الملامح ، الا أن هذا لا ينفى عنه انه صاحب (رؤية) وإن لم نصل الى مرتبة الفكر أو النظرية ، وهذا ما تكشف عنه مقتطفات من مذكراته وبعض أحاديثه ، وهى المذكرات والأحاديث التى تخالفه الرأى في بعضها الا أنها على أية حال تقدم الرؤية السعدية كما هى . . ففى عام ١٩٠٨ كتب سعد زغلول محلا البناء الطبقي للمجتمع المصرى ، فقسم الريفيين الى طبقتين اجتماعيتين أطلق عليهما تعبيراً جامعاً : هو الزارعون وقال عن الفئة أو الطبقة الأولى من الفلاحين من غير الأثرياء أنها « أبعد الناس عن الاشتغال

كانك قزم أو طفل ، في صورته رنة عجيبة ، وفي منطقته قوة ساحقة ، وفي فمه فصاحة دافقة ، وفي ذهنه سرعة نادرة ، فيشغلك كل ذلك عن نفسك ، وعن التفكير الحر المستقل . وتشعر كذلك كأنك مقيد أمامه بقيود متينة أدق من الخيط ، من غير ضيق أو ضغط » (انظر : محمد كامل سليم ، ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، سنة النشر غير مذكورة ، ص ١١) .

(١) طارق البشرى ، سعد زغلول وفكره السياسى ، الطليعة ، السنة الخامسة ، مارس

بالسياسة « وحدد السبب في ذلك بقوله « لا تتور لهم ثائرة الا اذا مست الجهة الضعيفة فيهم .. وهى الجهة الاعتقادية - يقصد بذلك الدين - فهم منصرفون عن كل عمل عام ، الا اذا وسوس وسواس في صدورهم بالدين وأحكامه » (١) .

ويحلل سعد طبقة « الصناع والفلة » في المدينة ، فيرى أنهم « .. لا يهتمون الا باعمالهم وقبض أجورها ولا يتحركون لعمل عام الا اذا حركتهم عوامل الدين » ، ثم يشير الى كل من طبقة كبار الملاك في الريف وطبقة كبار التجار بالمدينة ويصمهما بالتخلف عن الوعي القومى والعمل وفق مصالحهم الخاصة « فذوو الوجاهة والنفوذ » بين الفلاحين يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الاشتغال بها من السلطة والنفوذ في العامة فاذا آنسوا من الاشتغال بها ضررا بما يبتغون من سلطة وجاء انصرفوا عنها وتفرأوا منها » (٢) .

(٤)

وعن رؤيته للجماهير ودورها الوطنى يقول سعد « انى أحب أن يكون للشعب صوت من نفسه ، يعبر عن احساسه الخاص .. وأن يكون هذا الاحساس قائما بالشعب لأنه يدرك منفعته ، لا لأنه يقلد الغير » (٣) . ثم تصوره عن قيام تنظيم سياسى يقول « وعندى أن أحسن ما ترشد اليه هذه الأمة في الظروف الحاضرة وغيرها أن تقوم فيها طائفة يكون من همها نشر الحقائق بينها ودعوة الناس الى الايمان بها » . وتكون مهمته أن يحمل الناس على « .. محبة المجد الصادق الذى يفاله الانسان بجسده وكده لا باسنتسابه أزيد أو عمرو » أما مهمته الثانية فهي أن « .. يقف بالمرصاد لكل مخالف لمصلحة الأمة وأن يكون انتقادها مبنيا على الحق والصدق » (٣) .

وماذا عن الديمقراطية النيابية في تصور سعد ، فالديمقراطية عنده تصبح زائفة ما دامت السلطة بيد الرجعية ، وما دامت الجماهير ليست من النوعى والتنظيم بحيث تستطيع أن تحمى الديمقراطية البرلمانية ، ويرى سعد

(١) مصطفى النحاس جبر ، مذكرات سعد زغلول : دراسة ، ص ص ١١ - ١٢ .

(٢) مصطفى النحاس جبر ، نفس المرجع ، ص ١٤ .

(٣) مصطفى النحاس جبر ، نفس المرجع ، ص ص ٢١ - ٢٢ .

أنه إذا ما توصلت أمة هذه أفرادها - ويقصد هنا عدم الاستعداد والوعى - « ٠٠ الى أن تنال الحكومة النيابية وهى على هذا الحال من الضعف وقلة الكفاءات لا يثبت القوى حتى يتغلب فيها ولا يجد أمامه من القوى - يعنى الجماهير المنظمة - ما يردعه ويحمى من شره » (١) .

وبطول الحديث عن رؤى سعد ووجهات نظره التى تكشف عن ملامح عامة تميز فكره ، ولكنها ملامح لم تشكل حقيقة نظرية عامة يمكن أن تنسب الى سعد ، وهو الأمر الذى نجد عكسه تماما لدى أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل صاحب نظرية (الحريين) التى استقت أصولها من الليبرالية الغربية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، ولكن لطفى السيد - رغم زعامته الفكرية - لم يستطع أن يكون زعيما سياسيا جماهيريا لافتقاره لأهم مقومات الزعامة السياسية الجماهيرية ، وهى ملكة القيادة ومزية الحضور الجماهيرى وموهبة التأثير فى الآخرين . الخ ، وهى الامور التى توفرت - بصورة لافتة - لدى سعد . علايمكن أن تخلق السمات الكازمية - وحدها - زعيما سياسيا متكاملا . ولا يمكن أن تكون الزعامة الفكرية وحدها كافية لخلق زعيم سياسى .

وبهذه الملكات وبذلك القدرات الخاصة ، وبهذه الرؤى الفكرية المتميزة، أضحى سعد من أكفأ الصفوات ، وأجدرها تمثيلا لزعامة الأمة ، وإتد رأى أمين الرافعى فى ذلك « أن سعدا هو أقرب الناس الى الشعب وهو أكثر الزعماء الموجودين كفاية وقدرة على الاضطلاع بأعباء رئاسة الوفد » (٢) .

وتتضح قيمة الرأى الذى أبداه الرافعى فى سعد ، اذا ما عرفنا أن الأول (الرافعى) لم يكن مجاملا ، ولا كان من أصحاب الهوى السياسى ، بل كان من أكثر الكتاب الصحفيين والمفكرين موضوعية وعقلانية . والدليل على ذلك أنه فى الوقت الذى رشح فيه سعدا لزعامة الأمة لما وجده فيه من قدرات وكفاءات خاصة وقف له ولحزبه بالمِرصاد عندما حاد سعد وحزبه الحاكم عن

(١) مصطفى النحاس جبر ، نفس المرجع ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) انظر : صبرى أبو المجد ، أمين الرافعى ، مناضل مصرى من أجل الدستور وحرية الرأى ، كتاب الجمهورية (العدد ٣٣) ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٩٣ .

مبادئ الديمقراطية وعندما وقفوا من المعارضة موقفا غير شريف» (١) .

(٥)

ولا ينبغي ونحن في معرض الحديث عن أصرار عبقرية سعد ونبوغ زعامته التي جسدتها ثورة عام ١٩١٩ (٢) أن نتناسى الدور العظيم الذي لعبته الجماهير في بلورة الشخصية الزعامية لسعد والاستجابة التلقائية والفورية للشعب إزاء اعتقال سعد ورفاقه (٣) فلولاً هذا الشعب ولولا هذه الثورة (وهي ثورة شعبية من أسفل بعكس الثورات الفوقية التي يقوم بها العسكريون عادة) ما تجسدت زعامة هذا الرجل ولظلت ملكاته وقدراته حبيسة ذاته ، كامنة فيه ، فهل نستطيع أن نقول ان عبقرية هذا الرجل قد تجسدت من خلال عبقرية هذا الشعب ؟ .

ويبدو أن سعداً بحسه الوطني وبانتمائه القروى للرعاع على نحو ما كان يزهو دائماً وكراهية السلطة الشرعية والسلطة الفعلية (الانجليز) له قد استطاع ان يضيف الى سماته الكارزمية ما أهله لأن يكون زعيماً للامة رحباً طويلاً من الزمن وأضحى رمزا للوطنية ونموذجاً للزعامة المصرية الأصلية .

وإذا ما نظرنا الى ثورة عام ١٩١٩ باعتبارها حركة اجتماعية ثورية يتوقع بعدها - حسبما يشير كليننت مور Moore - نوعاً من التحديث

(١) انظر موقف سعد من المعارضة في : عاطف أحمد فؤاد ، وزارة سعد زغلول الاولى والفكر السياسي المصري ، ص ص ١١٥ - ١٢٠ . وانظر محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية (الجزء الاول) ص ص ١٨٧ - ١٨٨ . وكذلك عبد الرحمن الراجعي ، في اعقاب الثورة المصرية ، ص ١٢٧ .

(٢) انظر يوميات ثورة ١٩١٩ ، مجلة الطليعة (العدد ٣) مارس ١٩٦٩ ، ص ص ٦٧ - ٧١ .

وانظر قصة الثورة وأحداثها في عبد الرحمن الراجعي ، ثورة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ ، كتاب الشعب ، الجزء الاول . وانظر كذلك عبد العظيم رمضان ، طور الحركة الوطنية ١٩١٩ - ١٩٣٦ ، ص ص ١٣٠ - ١٨٧ . وانظر أيضاً محمد كامل سليم ، ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفت ، كتاب اليوم .

(٣) انظر مظاهر هذه الاستجابة الفورية من الشعب في : على محمد محمد بركات ، الناحون بين الثورة العربية ، وشورة ١٩١٩ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني والعشرون ١٩٧٥ ، ص ص ٢٢٦ - ١٣٦ .

السياسى Political Modernization لا سيما فى تغيير نمط الحكم من نمط تسلطى استبدادى الى آخر ديمقراطى (١) . فنلاحظ أن نتائج ثورة ١٩١٩ لم تقتصر فقط على كونهما مفجرة للكرامن العبقريّة فى كيان مصر (٢) ، أو أنها حسدت زعامة سعد ، أو فجسرت الصراع بين مصر وشعبها وبين المستعمر الانجليزى ، وظهور الشعب كقوة مؤثرة فى الحركة الوطنية . . . الى آخر هذه النتائج ، وانما من المؤكد أن نتائج هذه الثورة قد كشفت عن مظهر هام من مظاهر التحديث السياسى وهو التغيير الذى أصاب نظام الحكم السائد من نظام أوتوقراطى الى آخر ديموقراطى نيابى ، وهو النظام الذى تجسّد فى دستور عام ١٩٢٣ (٣) ، والذي مهد - رغم تحفظات البعض عليه - لزوال الحكم المطلق وأقول نجمه ، ومن ثم كانت الانتخابات وكانت أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول ، وهى إحدى مظاهر التحديث السياسى التى ترتبت على ثورة عام ١٩١٩ ، ومن ثم تصدق فرضية كليمنت مور Moore التى أشرنا إليها ، حيث كان عام ١٩٢٤ قمة الممارسة الديمقراطية فى مصر ، سواء فيما اسفرت عنه الانتخابات أو فى طريقة اختيار سعد زغلول لوزارته ، وفى دلالة تعيين خمس أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى الدولة كحق من حقوق رئيس الوزراء أو فى المناقشات الساخنة التى دارت فى مجلس النواب حول السودان وسردار الجيش وبعض الشئون الخارجية . ولقد تمثلت ذروة الممارسة الديمقراطية فى ذلك العام فى تعديل قانون الانتخاب بحيث أصبح الانتخاب مباشرا بعد أن كان على درجتين (٤) ، وهذه كلها بلا شك مظاهر للتحديث السياسى ، يرجع الفضل فيه الى ثورة ١٩١٩ وما تولد عنها من وعى سياسى ، تمثل أول ما تمثل فى دستور عام ١٩٢٣ الذى يعتبر جزءا من انضال الديمقراطى المصرى ، ومظهرا من مظاهر الصراع الليبرالى بين الحركة

(١) Moore, Clement, Authoritarian Politics in Unincorporated Society, P. 193.

(٢) حسين مؤنس ، دراسات فى ثورة ١٩١٩ ، ص ٥٢ .

(٣) انظر وثائق دستور ١٩٢٣ فى : الطليعة ، العدد السابع .

(٤) انظر حسن يوسف ، الممارسة الديمقراطية فى مصر (١٩٢٤ - ١٩٥٢) فى : مركز

الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الديمقراطية فى مصر : ربع قرن بعد ثورة ٢٣ يوليو

(تاليف مجموعة من الباحثين) ، يوليو ١٩٧٧ ، ص ١٣ .

وانظر كذلك : صلاح زكى ، الفكر الديمقراطى والحياة النيابية فى مصر ، مركز النيل

للاعلام ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ص ٢١٦ - ٢٦١ .

الوطنية بقيادة الوفد من جهة ، وأحزاب الأقلية والسراى من جهة أخرى منذ ميلاده حتى قيام ثورة ١٩٥٢ (١) .

(٦)

ومن المؤكد - في تصورنا - أنه ما كان ينبغي على سعد أن يقبل تشكيل الوزارة بحيث يظل زعيما سياسيا أو رئيسا للبرلمان وهو أقرب الى المنصب الشعبى منه الى السلطة الرسمية ، ولكن يبدو أن الظروف أرادت لسعد أن يكون دائما زعيما خارج دائرة السلطة الرسمية ، فقدم استقالته بعد مضي حوالى شهر منذ توليه الوزارة على أثر مقتل سردار الجيش الانجليزى السير لى ستاك (٢) .

والواقع أن مسألة تولي سعد الوزارة قد شغلت رأى العام آنذاك وانقسمت الآراء حولها « ... ففريق يفضل أن يبقى سعد باشا نائبا في مجلس النواب وبعيدا عن الوزارة ، وفريق يرى أنه يجب على سعد باشا أن يحمل عبء الوزارة ولا يدع هذه الفرصة السانحة لخدمة بلاده » (٣) .

ويذهب محمد سعيد (باشا) مؤيدا تولي سعد الوزارة على أساس أن « ... تبوله ضرورى لمصلحة القضية المصرية ، وهو كذلك ضرورى لمصلحة البلاد من كل الوجوه الأخرى ، إذ أن كفاءته ، وصفاته ، والثقة التى وضعتها الأمة فيه ، تجعله الوحيد الذى يستطيع مباشرة تنفيذ النظام الجديد وإنشاء تقاليد تصالحة ، ثم أن وجوده فى رئاسة الوزارة ينشر فى البلاد جو اطمئنان وترتاح له النفوس ، ومن شأن هذا الاطمئنان أن يعود على البلاد بالخير والبشر » (٤) .

ويؤيد محمد توفيق نسيم (باشا) تولي سعد الوزارة فيقول « وان

(١) انظر صلاح زكى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٨ .

(٢) انظر تحليلا للشهر العشرة التى ترأس فيها سعد الوزارة فى : عاطف أحمد غوادر ، وزارة سعد زغلول الأولى والفكر السياسى المصرى ، مجلة السياسة الدولية ، ص ١٠٤ - ١٢٤ .

(٣) محمد ابراهيم الجزيرى ، آثار الزعيم سعد زغلول : عهد وزارة الشعب ، الجزء الأول ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) محمد ابراهيم الجزيرى ، نفس المرجع ، ص ٢٩ .

سعد باشا الذى خدم أمته بجهده ، ووقف مواقفه المعروفة وهو خلو من كل قوة وسلطان غير قوة الحق وسلطان الأمة ، لأقوى على تلك الخدمة وأشد ثباتا فى مواقفه عندما يجمع بين قوة الحق وقوة الحكم ، ولأقدر على تصريف الأمور فى مناهج الصواب وتمشيتها فى سبيل الرشاد . ولو جد الأمر شدت الأمة أثره ، وكان هو مرجعها كلما عز رأى . كلنا يعرف أن سعد باشا ليس بالرجل الذى تغره المناصب ، ويستتفه فضل يناله منها ، أو حول يختص به فيها ، ولبس هو الذى تخيفه المخاوف فيتهدبها ، فقد كان فى جميع أعماله على بينة من أمره ، ويقين من ربه **فاذا قبل الحكم مع الزعامة** وكان حقا عليه قبوله **لارتباطهما** ، دائما يضحي بشئ كثير من راحته وصحته ويحمل من المسؤولية أضعاف ما حمل» (١) .

إذا كنا نحترم رأى توفيق نسيم فيما يتعلق بتصوره عن ضرورة تولى سعد البرار ، فما لا يمكن أن نوافقه عليه هو قوله بأن الحكم والزعامة مرتبطان ، فما كان الحكام دائما بزملاء ، ولا الزعماء من الحتمى أن يكونوا حكاما ، وإن جمع بعضهم أحيانا بين الحكم والزعامة ، إلا أنهم لم يصيبوا فى هذا نحاحات تذكر ، لذلك فنحن نختلف أيضا مع الجزيرى الذى كان يؤيد تولى سعد الوزارة مشبها إياه بالغازى « . . . مصطفى كمال وفنزيلوس وموسوليني ، وكل الزعماء الذين قادوا النهضة : فإن هؤلاء الزعماء لم يحجموا عن تقلد الحكم فى الوقت المناسب ، ولم ير واحد منهم أن قيادة النهضة مانعة من ذلك ، بل رأوا بالعكس أن تقلدهم الحكم استمرار للواجب الذى أخذوه على أنفسهم ووكلت اليهم أمهم أن يقوموا به لخدمتها» (٢) .

ونحن لا نوافق الجزيرى فى نظريته الى موسوليني أو غيره باعتبارهم من الزعماء السياسيين ، بل هم - فيما نتصور - أقرب الى المهيجيين الجماهيريين منهم الى الزعماء السياسيين . فاننا نربأ بسعد أن يشبه بهم أو بأحدهم ، لا سيما موسوليني ذلك الديكتاتور الذى كان ينمى دائما على الديمقراطية أنها قد قادت العالم الى الدمار والى اشعال الحروب .

ولكن هل استطاع سعد (الحاكم) خلال الأشهر العشر التى تولى فيها

(١) محمد ابراهيم الجزيرى ، نفس المرجع ، ص ٣١ .

(٢) محمد ابراهيم الجزيرى ، نفس المرجع ، ص ٢٩ .

الوزارة أن يقدم جديدا لأمته ، غير تفشى الحسوبية والتفكيك بالمعارضة (١) ،
فما كنا نود أن يكون سعد حاكما - وهو لحسن الحظ لم يستمر الا أشهراً
عشرة - بل كنا نود - وهذا ما تحقق - أن يظل دائماً حاكماً فوق كل الحكام ،
وذا سلطة تتجاوز كل السلطات وأن يكون رقيباً على تعسف السلطة الحاكمة ،
رعيماً للأمة ، قائداً لمسيرتها ، وهذا ما تحقق بالفعل حتى بعد رحيل الرجل ،
وهذا سر آخر من أسرار عبقريته .

(٧)

وهكذا كانت زعامة سعد ، ذلك الشيخ الهرم ، الذى استطاع بحكمة
أن يقود الأمة فى حقبة من أخطر حقبتها وأكثرها اثارة ، ولا شك أن لزعامته
هقومات يمكن إيجازها فيما يلى :

١ - المهبة الخاصة والقدرة المتميزة على التأثير فى الآخرين وهى من
أولى السمات المميزة للقيادة الناجحة والزعامة السياسية القادرة .

٢ - التفاف الجماهير حوله والتأييد الشعبى الذى يندر أن نجد مثيله
لدى تاريخ أمة من الأمم . ولا شك أن هذا التأييد قد أضاف الى أبعاد
الشخصية الزعامية لسعد بعداً جديداً ، زاده قوة على قوة .

٣ - التجربة السياسية والحزبية والتمثل الجيد لظروف المجتمع المصرى
والرؤية الواعية لتاريخ هذا المجتمع .

٤ - رغم انتماؤه الى الصفوة السياسية المثقفة الا أنه استطاع أن
يتجاوز حدود هذه الصفوة وأن يكون زعيماً للرعاع على نحو ما شبه سعد
نفسه ، ولا شك أن انتماءه للطبقة القرية المصرية ، وقربه من نفسية الانسان
المصرى ومهمه لعبقرية هذا الانسان وديناميات شخصيته ما ساعده كثيراً أن
يتجاوز برعامته حدود صفوته المثقفة .

٥ - لعبت ظروف الحكم الاوتوقراطى وأزمة الاحتلال الانجليزى على
تفجير كوامن العبقرية الزعامية لسعد ، وصلابته وعنايته والتى ظهرت
ارهاصاتاً فى الفترة التى تولى فيها وزارة المعارف ، وهى الفترة التى شاهدت

(١) انظر : عاطف احمد فؤاد ، وزارة سعد زغلول الاولى والفكر السياسى المصرى ،

صراعه مع دانلوب ممثل الاحتلال الانجليزى فى وزارة المعارف والتي كشفت
عن عناد الفلاح المصرى وصلابته وأصالته •

٦ - لم تكن زعامة سعد من الزعامات الجوفاء ، أو ذات الخواء الفكرى ،
بل كانت زعامة تجمع بين السمات الكارزمية والرؤية الفكرية وان لم تصل
الى مستوى النظرية أو الايديولوجية المتكاملة •

٧ - استطاع سعد من خلال قيادته للأمة وزعامته لها أن يحدث ما يمكن
تسميته بالتحديث السياسى والذى تمثل فى دستور عام ١٩٢٣ كأول بشير
الحكم الليبرالى وما ترتب على هذا الدستور من نتائج كان لها تأثيرها على
المسيرة السياسية للمجتمع المصرى •

٨ - رغم استئثار سعد بالرأى فى كثير من الأمور وضيقة أحيانا
بالمعارضة الا أنه استطاع أن يكسب احترام مؤيديه ومعارضيه معا وهو
ما تبدى فيما رواه كل من عبد الرحمن الرافعى ، وأمين الرافعى ، ومحمد
حسين هيكل •